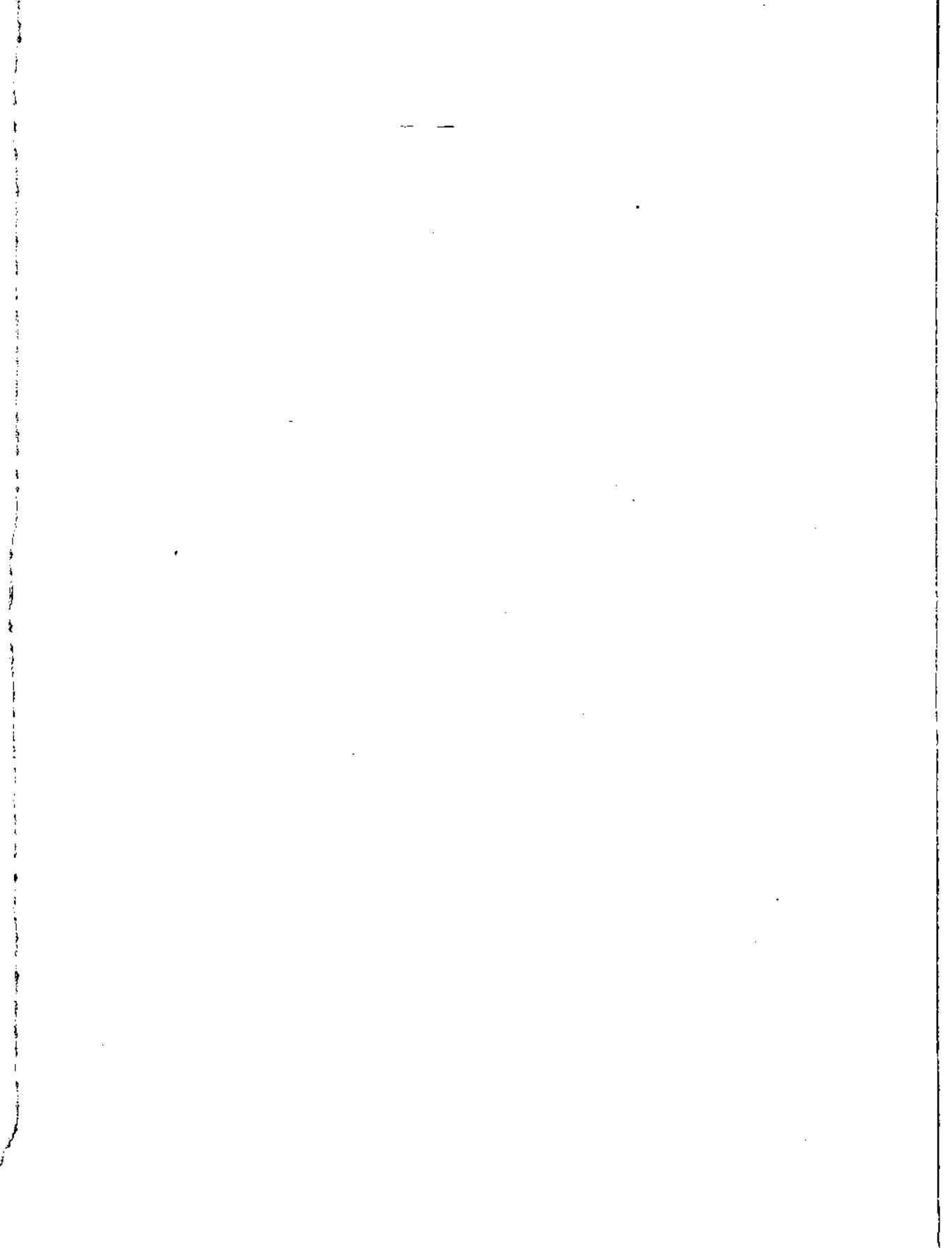


شعر أبي زُبَيد الطائي " دراسة تحليلية "

للدكتورة / ناهد أحمد السيد الشعراوي

مدرس بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



أبو زبيد الطائي

هو حرملة بن المنذر بن معد يكرب بن حنظلة بن النعمان بن حبة بن سعة ابن الحارث بن ربيعة بن مالك بن سكر بن هنيء بن عمرو بن الغوث بن طيء بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان (١) .
وتشأ أبو زبيد نصرانياً ، وكان أبو زبيد من المعمرين ، وقيل إنه عاش مائة وخمسين سنة (٢) ، وعاش أبو زبيد إلى أيام معاوية (٣) .

ونلمح أخباراً عن هيلته عند ابن حبيب ، والمبرد ، وياقوت ، إذ ينكر المبرد أنه كان موصوفاً مع جماعة قد فاقوا الناس طولاً وجمالاً ، منهم العباس بن عبد المطلب رحمه الله وولده ، وجريز بن عبد الله البجلي ، وزيد الخيل بن مهلهل الطائي ، ثم يقول : وكان أهد هؤلاء يُقْبَلُ المرأة على اليهودج ، وكان يقال للرجل منهم ، مقبل اللطعن (٤) .

وينكر ياقوت صفة الطول فيه ، يقول : وكان أبو زبيد طويلاً من الرجال ، ينتهي إلى ثلاثة عشر شبراً ، وقد نكره ابن حبيب (٥) تحت عنوان " من كان يركب الفرس الجسم فتخط إبهاماه في الأرض كما ينكر ياقوت حسن شكله فيقول : " وكان حسن الصورة ، فكان إذا دخل مكة دخلها متنكراً لجماله (٦) " .

١ - الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج ١٢ ص ١١٨

٢ - المعمرين للمجستائي ص ١٠٨

٣ - خزائن الأئمة لعبد القادر البغدادي ج ٤ ص ١٩٢

٤ - لتعامل للمبرد ج ٢ ص ٤٥٩

٥ - للمحبر لابن حبيب ص ٢٣٣

٦ - معجم الأقباء لياقوت الحموي ج ١٠ ص ١٩١ .

فأبو زبيد شاعر من طيء ، وكانت قبيلة طيء باليمن ، " ثم خرجت على أثر الأزد إلى الحجاز ونزلوا سميراً وفيداً في جوار بني أسد ، ثم استولوا على أجأ ومسلمي ، وهما جبلان من بلاد بني أسد ، فأقاموا في الجبلين حتى عرفا بجبل طيء(١)".

ويرجع أبو زبيد في نسبة إلى النعمان بن حية بن سعة كما أسلفنا . وهو الذي ولي ملك الحيرة بأمر كسرى ، وكان له شأن يذكر عند الفرس ، وهذا يعني أن الشاعر كان ينحدر من أسرة معروفة في طيء ، وربما يكون ذلك سبباً من الأسباب التي حملت الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) على استعماله على صدقات قومه ، على الرغم من أنه لم يستعمل نصرانياً غيره أوردنا بن سلام الجمحي : أن أبا زبيد كان من زوار الملوك ، ولملوك العجم خاصة ، وكان عالماً بسيرهم(٢) .

وحدث عمارة بن قابوس قال : " لقيت أبا زبيد الطائي ، فقلت له يا أبا زبيد ، هل أتيت النعمان بن المنذر ، قال : أي والله ، لقد أتيتَه وجالسته ، قلت : فصفة لي فقال : كان أحمر أزرق أبرش قصيراً ، فقلت له : أيسرك أنه سمع مقاتلك هذه ، وإن لك حمر النعم ، قال : لا والله ولا سودها ، فقد رأيت ملوك حمير ورأيت ملوك عُثمان في ملكها فما رأيت أشد عزاً منه . كان ظهر الكوفة يبيت الشقائق فحسى ذلك المكان ، فتمسب إليه ، فقبل شقائق النعمان فجلس ذات يوم هناك وجلسنا بين يدين كأن على رؤوسنا الطير ، فقام له رجل من الناس ، فقال له أبيت للنعم(٣) "

وأما عن لقائه بالخليفة عثمان بن عفان " رضى الله عنه " ، فيأتي الخبر عند ابن سلام وينقله أبو الفرج عنه ، ويرد أيضاً عند ياقوت : " كان أبو زبيد من زوار الملوك وخاصة لملوك للعجم ، وكان عالماً بسيرهم . وكان عثمان بن عفان " رضى الله عنه " يقرب أبا زبيد ، وينى مجلسه لمعرفة سير من أتركهم من ملوك

١ - ديوان أبي زبيد - نوري القيس ص ٥٦٠

٢ - طبقات لحول الشعراء لابن سلام ص ٥٩٣ : ٥٩٤

٣ - الأغني ج ١٢ ص ١٢٥

العرب والعجم . فحضر ذات يوم عثمان وعنده المهاجرون والأنصار ، فتذاكروا ما أثر
العرب وأشعارها . قال : فالتفت عثمان إلى أبي زيد ، وقال : يا أخا تبع المسيح
أسمعنا بعض قولك ، فقد أثبتت أنك تجيد . فأثبده قصيدته التي يقول فيها :
من مبلغ قومي النالين إذ شحطوا أن الفؤاد إليهم شقيق ولع

ووصف فيها الأسد فقال عثمان : تالله تفتأ تذكر الأسد ما حييت ! والله إني
لأحسبك جباناً هذاناً ، فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، ولكني رأيت منه منظراً وشهدت
منه مشهداً ، لا يبرح ذكره يتجدد في قلبي ، ومعذور أنا يا أمير المؤمنين غير ملوم .
فقال عثمان : وأنى كان ذلك ؟ قال : خرجت في صياحة أشرف من أفناء قبائل
العرب، نوى هيئة وشارة حسنة ، ترتدى بنا المهارى بأكساتها ، ونحن نريد الحارث
بن ابي شمر الغساني ملك الشام . فاخروط بنا المسير في حمارة القيظ
فقال له عثمان : اسكت ، قطع الله لساتك ! فقد رعبت قلوب المؤمنين" (١) .

أخباره مع الوليد بن عقبة :

الوليد بن عقبة هو أخو الخليفة : عثمان بن عفان لأمه . أمها أروى بنت كرز ،
وأمها البيضاء بنت عبد المطلب . وكان من فتيان قريش وشعراتهم وشجعاتهم
وأجوادهم وكان فاسقاً . وولى لعثمان رضى الله عنه الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ،
فشرب الخمر ، وشهد عليه بذلك ، فعدّه وعزله .

وكان أبو زيد الطائي نديماً للوليد بن عقبة أيام ولايته الكوفة ، فأنزله الوليد
داراً لعقيل بن أبي طالب على باب المسجد ، فاستوهبها منه فوهبها له ، فكان ذلك
أول الطعن عليه من أهل الكوفة ، لأن أبا زيد كان يخرج من منزله حتى يشق
الجامع إلى الوليد ، فيسمر عنده ، ويشرب معه ، ويخرج فيشق المسجد وهو سكران
فذلك نبيهم عليه (٢) .

١ - طبقات لحول الشعراء ص ٥٩٥ ، الأختى ج ١٢ ص ١١٨ : ١٢٢

٢ - الأختى ج ٥ ص ١٢٤

وكان أبو زبيد قد استودع بنى كنانة بن تميم بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن غنم بن تغلب إبلاً ، فلم يردوها عليه حين طلبها ، وكانت بنو تغلب أخوال أبي زبيد ، فوجد الوليد بنى تغلب ظالمين لأبي زبيد ، فأخذ له الوليد بحقه ، فقال بمدح الوليد :

بالتيت شعري بأبناء أنبؤها قد كان يعيا بها صدري وتقديري
عن امرئ ما يزده الله من شرف أقرح به ومري غير مسرور

يعنى مري بن أوس بن حارثة بن لأم . وهى طويلة يقول فيها :

إن الوليد له عندي وحق له ود الخليل ونصح غير منحور
لقد رعيتي وأناتى وأظهرنى على الأعدى بنصر غير تعبير
فشذب القوم عنى غير مكترث حتى تناهوا على رغم وتصغير
نفسى فداء أبى وهب وقل له يأم عمرو فحلى الوى أو سيرى

وفى رواية ابن حبيب : يأم زيد ، يعنى : يأم أبي زبيد (١) .

وخير آخر يرويه أبو الفرج عن إقطاع الوليد أرضاً لأبي زبيد يقول (٢) :

" كان الوليد بن عقبة قد استعمل الربيع بن مري بن أوس بن حارثة بن لأم الطائى على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة ، فأجدبت الجزيرة ، وكان أبو زبيد فى تغلب فخرج بهم ليرعيهم فأبى عليه الأوسى ، وقال : إن شئت أن أرتعك وحدك فعلت وإلا فلا ، فأتى أبو زبيد الوليد بن عقبة فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام إلى القصور الحمر من الحيرة وجعله له حمى ، وأخذها من الآخر ."

وشعره فى ذلك يدل على هذه الأحداث يقول :

لعمري أبيتك يا ابن أبى مري
أباح لها أبارق ذات نور
بحمد الله ثم فتى قریش
لغيرك من أباح لها الديارا
ترعى القف منها والعرارا
أبى وهب غدت بطناً غرارا

١ - الأغاني ج ٥ ص ١٢٥

٢ - المرجع السابق ج ٥ ص ١٢٥

إذا ما كنتم سنة جزارا
وطحطنا المقطعة القصارا

أباح لها ولا يحسى عليها
يريد جزراً من الجذب والشدة
فتى طالت يداه إلى المعالي

ولما عزل الوليد ووليهاسعيد انتزعها منه وأخرجها من يده ، فقال (١) :

يوم باتت بودها خنساءً
قسمة مثل ما يشق الرداء
وهى فى ذلك لدنة غيداء
س إليها مديمة حواء
وذروا ما تزين الأهواء
إن ليتاً وإن لئواً عناء
حين لاحت للصابح الجوزاء
ب وأوفى فى عوده الحرياء
ه وأذكت نيرانها المعزاء
سفعتها ظهيرة غراء
عرفتى الدوية الملساء
فهى إلا بغامها خرساء
إن ذا الليل للعيون غطاء .

ولقد متت غير أنى حى
من بنى عامر لها شق نفسى
أشربت لون صفرة فى بياض
كل عين ممن يراها من النا
فاتتوها إن للشدائد أهلاً
ليت شعرى وأين منى ليت
أى ساع سعى ليقطع شربى
واستظل العصفور كرهاً مع الض
ونفى الجذب الحصا بكرا عي
من موم كأنها حر نار
وإذا أهل بلدة أنكرونى
هرفت نفاقتى الشمامل منى
هرفت ليها الطويل وليلى

ويروى " أن مات الوليد قبل لى زبيد ، فمر أبو زبيد بقبيره فوقف ثم قال :

يا هاجرى إذ جئت زالكه
يا صاحب القبر السلام على
لم تصرف ، وكان يجيء إلى قبره فيشرب عنده ويصب الشراب على قبره ويكى
ههقى أبو زبيد إلى معاوية (٢)

١ - المرجع السابق ج ٥ ص ١٢٦

٢ - مجلة الألب ج ٤ ص ١٢٩

والتأيت أنهما نُقنا فى موضع واحد بالبليخ (١) ، ويدل ذلك شعر لأشجع السلمى وقد مرّ بقبريهما ، قال (٢) :

مررت على عظام أبى زييد وقد لاحت ببقعة صلود
وكان له الوليد نديم صدق فنادم قبره قبر الوليد
وما أدرى بمن تبدأ المنايا بأحمد أو بأشجع أو يزيد

إسلامه :

اجتهد العلماء فى البحث عن أديان القبائل العربية قبل الإسلام ، ونكر أصنامهم ومعابدهم وتبلياتهم وأصحاب الكتب السماوية منهم " وطىء إحدى القبائل العربية التى تنازعتها الأديان وقد غلبت عليها النصرانية والوثنية " (٣) .

وقد كان للاتصال الدائم بين طىء وأهل الشام أثره فى أن تفد الديانة النصرانية إليهم ، وأن تستقر فى نفوس كثير منهم . ويذكر د . جواد على أنيان القبائل ، فيقول :

" تعد طىء من القبائل التى وجت النصرانية سبيلاً إليها (٤) .

وأما بعد الإسلام فقد تابعت بطون طىء فى الدخول فى الإسلام ، حتى اكتمل بوقاة زيد الخيل على رأس قومه ~~بين طىء~~ مباحةً بإسلام قومه سنة تسع للهجرة وهى السنة التى عرفت بسنة الوفود . وتنقل بعض المصادر عن رجال من طىء قالوا :

قدم وفد طىء على رسول الله " صلى الله عليه وسلم " خمسة عشر رجلاً رأسهم وسيدهم زيد الخير وهو زيد الخيل بن مهلهل بن بنى نيهان ، وفيهم وزر بن جابر بن سدوس بن أجمع البنهاتى وقبيصة بن الأسود بن عامر من جرم طىء ،

١ - نهر بالرقعة يجتمع فيه الماء من عيون

٢ - الأغانى ج٥ ص١٤٤

٣ - شعر طىء وأخبارها فى الجاهلية والإسلام ، د . وفاء فهمى السديونى ص٨١

٤ - الملصق فى تاريخ العرب د . جواد على ٦/٦٠١

ومالك بن عبد الله بن خيبري من بنى معن وقعين بن حليف بن جديلة ، ورجل من بولان . فدخلوا المدينة ورسول الله " صلى الله عليه وسلم " فى المسجد فعدوا رواحلهم بفناء المسجد ، ثم دخلوا فدنوا من رسول الله " صلى الله عليه وسلم " فعرض عليهم الإسلام ، فأسلموا . وجازاهم بخمسة أواق فضة كل رجل منهم وأعطى زيد الخيل إثنى عشرة أوقية ونشأ وقال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " : ما ذكر لى رجل من العرب إلا رأيتُه دون ما ذكر لى ، إلا ما كان من زيد فإن لم يبلغ فيه كل ما فيه ، وسماه رسول الله " صلى الله عليه وسلم " زيد الخير ، وقطع له قيداً وأرضين فكتب له بذلك كتاباً ورجع مع قومه (١) .

وتذهب بعض المصادر (٢) إلى أن أبا زيد كان نصرانياً ، وأدرك الإسلام ولم يسلم ، وإنه على دينه (النصرانية) مات ، بينما يذكر الطبرى عنه (٣) أنه أسلم فى آخر إمارة الوليد ، وحسن إسلامه ، فاستنخله الوليد ، وكان عربياً شاعراً حين قام على الإسلام . ويؤيد ابن الأثير هذه الرواية فيقول : " وكان أبو زيد الشاعر فى الجاهلية والإسلام فى بنى تغلب ، وكان أخواله . فظلموه ديناً له ، فأخذ له الوليد حقه إذ كان عاملاً عليهم ، فشكر أبو زيد ذلك له ، وانقطع إليه ، وغشيه بالمدينة والكوفة ، وكان نصرانياً فأسلم عند الوليد ، وحسن إسلامه (٤) .

وقد تقدم خير مرور أبى زيد بقبر الوليد ، وشعره فى ذلك .

كما تذكر الرواية أن أبا زيد كان يجرى إلى قبر الوليد فيشرب عنده ، ويصب الشراب على قبره ويكى . كما تقدم خبر مرور أشجع السلمى بقبريهما بالبليخ ، وأبياته فى ذلك .

ودفنه بالبليخ إلى جوار الوليد دليل آخر على إسلامه ، فالمعروف أن مقابر المسلمين لا يُدفن إلا المسلمون .

١ - تاريخ الطبرى ج٣ ص١٤٥

٢ - معجم الأبناء ج١٠ ص١٩١ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٠٧

٣ - تاريخ الطبرى ج٣ ص٢٧٣

٤ - الكامل لابن الأثير ٤٣/٣

موضوعات شعره

أولاً : وصف الأسد

ولع أبو زبيد بوصف الأسد ، وصفاً يدل على رؤيته عن قرب ، رؤية حقيقية فقد وصف أعضائه ، ودقق في أجزائه ، وصوّر حركاته وهو يهجم بالهجوم ، ويترصّد الفريسة . ووصف زمجرته المرعبة ، وبراثنه الخشنة الغليظة ، ومخالبه المعقوفة للرأس .

وكان يستخدم في أوصافه عبارات مهولة ، ترعب السامع ، وتدخل الرعب والهلع في نفسه ، حتى كان السامع يشاهد الأسد من خلال تصويره ، وهذا ما دفع الخليفة عثمان بن عفان "رضى الله عنه" إلى أن يلتفت إليه في مجلسه ، ويطلب منه أن يسمعه بعض قوله لأنه يجيد وصفه ، وعندما ينهى وصفه يقول له : اسكت ، قطع الله لسانك ، فقد رعبت قلوب المؤمنين(١) .

ويبدو أنه بلغ في وصف الأسد حداً ، جعل قومه يلومونه على كثرة هذا الوصف وقالوا : قد خفنا أن تسبنا العرب بوصفك له . فقال لو رأيتم منه رأيت أو لقيتم منه مألقي أكر ، لما لمتموني . ثم أمسك عن وصفه ، فلم يصفه حتى مات(٢) .
وصف الأسد في مجلس عثمان بن عفان رضي الله عنه :

وقصته أبي زبيد مع عثمان "رضى الله عنه" في وصف الأسد مشهورة ، وقد وردت عند ابن سلام (٣) ، وعند ياقوت الحموي (٤) .

١ - طبقات فحول الشعراء ص ٥٩٩

٢ - معجم الأبياء ج ١٠ ص ٢٠١

٣ - طبقات فحول الشعراء ص ٥٩٤ - ٥٩٩

٤ - معجم الأبياء ج ١٠ ص ١٩٤ : ١٩٨

ويدل الخبر أن حضر أبو زبيد ذات يوم مجلس عثمان " رضى الله عنه " وكان عثمان يقربه ، ويدنى مجلسه ، برغم نصرانيته . لأنه كان من زوار الملوك وملوك العجم خاصة ، وكان عالماً بسيرهم . وكان عند عثمان " رضى الله عنه " جمع من المهاجرين والأنصار . فقال له : يا أخا تبع المسيح ، أسمعنا بعض قولك فقد أنبت أنك تجيد ، فأثدده قصيدته التي يقول فيها :

من مبلغ قومي الناكين إذ شحطوا أن الفؤاد إليهم شقيق ولع

ووصف فيها الأسد ، فقال له عثمان : تالله تفتأ تذكر الأسد ما حييت ! والله إنى لأحسبك جياتنا هدانا ! فقال كلا يا أمير المؤمنين ، ولكنى رأيت منه منظراً ، وشهدت منه مشهداً لا يبرح نكره يتجدد فى قلبى ، ومعذور أنا يا أمير المؤمنين غير ملوم .

فقال عثمان : وأنى كان ذلك . قال خرجت فى صَيَابَةِ أَشْرَافٍ من أفناء قبائل العرب ، ذوى هيئة وشارفة حسنة ، تَرْتَمِي بنا المَهَارَى بِأَكْسَائِهَا ، ونحن نريدُ الحارثَ بن أبى شَيمِرِ الغَسَّاسَى ملك الشام . فاخروط بنا المسيرُ فى حَمَارَةِ القَيْظِ ، حتى إذا عَصَبَتْ الأفوَاهُ ، وَذَبَلَتِ الشِّفَاهُ ، وشالت المياهُ ، وأثكت الجوزاءُ المَعْرَاءُ ، وذاب الصَّيْهُدُ ، وصرَّ الجُنَيْبُ ، وضافَّ العَصْفُورُ الضَّبَّ فى جُحْرِهِ - أو قال فى وِجَارِهِ - قال قائلنا : أيها الرِّكْبُ ! غَوَّروا بنا فى ضَوْجِ هذا الوادِى . وإذا وادٍ قَدِيدٌ مَتْنَا كَثِيرُ الدَّغَلِ ، دائم الغلِّ ، شجرأوه مِغَّةٌ ، وأطياره مُرِنَةٌ ، فحظطنا رواحنا فى أصولِ نَوْحَاتِ كَنَهَبَلَاتٍ فَأَصَبْنَا من فضلاتِ المزاوِدِ وأتبعناها الماءَ الباردَ .

فإننا لنصِفُ حرَّ يومنا تلكَ ومماظلتَه ، إذ صرَّ أقصى الخيلِ أذنيه ، وفحصَ الأرضَ بيديه . فوالله ما لبث أن جال ، ثم حمم فبال ، وفعل فعله الذى يليه واحداً فواحداً . فتعضعت الخيلُ ، وتكعكت الإبلُ ، وتقهقرت البغالُ ، فمن نافر بثيكاله ، وناهض بعقاله ، فعلمنا أن قد أتينا وأنه السبعُ فرغ كل امرئٍ منا إلى سيفه فاستله من جُرْبَاتِهِ ، ثم وقفنا رزلاً فأقبل يتظالع من بغيه كأنه مجنوبٌ أو فى هِجَارٍ ، لصدرة نحيطُ ولبلاعيمه غطيظُ ، ولطرفه وميضُ ، ولأرساغه نقيضُ ، كأنما يحيطُ هِشِيمًا ، وإتما يطأ صرِيماً ، فإذا هامةٌ كالمجنِّ ، وإذا خدٌّ كالمسنِّ ، وعينان يهجران كأنهما سراجانِ يقدان ، وقصرةٌ ريلةٌ ، ولهزمةٌ رهلةٌ ، وكندٌ مغبطٌ وزودٌ

مُفْرَطٌ ، وساعدَ مَجْدُولٌ ، وَعَضَدَ مَفْتُولٌ ، وَكَفَّ شَتْنَةَ الْبِرَائِنِ إِلَى مَخَالِبِ كَالْمَحَاجِنِ .
فَضْرَبَ بِيَدَيْهِ فَأَرْهَجَ ، وَكَشَّرَ فَأَفْرَجَ عَنِ أَنْيَابِ كَالْمَعَاوِلِ مَصْقُولَةٍ غَيْرِ مَقْلُولَةٍ ، وَقَمِ
أَشْدَقُ ، كَالْغَارِ الْأَخْرَقِ .
ثُمَّ تَمَطَّى فَأَشْرَعَ بِيَدَيْهِ ، وَحَقَّرَ وَرِكَيْهِ بِرِجْلَيْهِ ، حَتَّى صَارَ ظِلُّهُ مِثْلِيهِ . ثُمَّ أَقْعَى
فَأَقْشَعَرَ ، ثُمَّ تَمَلَّ فَاكْفَهَرَ ، ثُمَّ تَجَهَّمَ فَأَزْبَارَ .

فَلَا وَالَّذِي بَيْتُهُ فِي السَّمَاءِ مَا اتَّقَيْنَاهُ إِلَّا بِأَوَّلِ أَحْيَانِنَا مِنْ بَنِي فِزَارَةَ ، كَانَ
ضَخْمَ الْجَزَارَةَ ، فَوْقَصَهُ ثُمَّ نَفَضَهُ نَفْضَةً ، فَفَضِقْضَ مَتْنِيَةً ، ثُمَّ جَعَلَ يَلْغُ فِي دَمِهِ .
فَنَمَرَتْ أَصْحَابِي ، فَبَعْدَ لَأَيِّ مَا اسْتَقْدَمُوا . فَهَجَّجْنَا بِهِ .
فَكَرَّ مَقْشَعْرًا بِزَبْرَةٍ كَانَ بَيْنَ كَتْفَيْهِ شَيْهًا حَوْلِيًّا : فَأَخْتَلَجَ رَجُلًا أَعَجَرَ ذَا حَوَايَا فَنَفَضَهُ
نَفْضَةً تَزَايَلَتْ مَفَاصِلُهُ ، ثُمَّ نَهَمَ فَرَفَرَ ، ثُمَّ زَفَرَ فَبَرِيرَ ، ثُمَّ زَارَ فَجَرَجَرَ ، ثُمَّ لَحِظَ ،
فَوَاللَّهِ لَخَلَّتْ الْبُرُقُ يَتَطَايِرُ مِنْ تَحْتِ جَفْوَنِهِ مِنْ عَنِّ شِمَالِهِ وَبِئْمِينِهِ . فَأَرَعَشَتْ
الْأَيْدِي ، وَاصْطَكَّتِ الْأَرْجُلُ ، وَأَطَّتِ الْأَضْلَاعُ ، وَارْتَجَّتِ الْأَسْمَاعُ ، وَحَمَّجَتِ الْعْيُونَ ،
وَلِحِقَّتِ الْبُطُونُ ، وَاتَخَزَلَتِ الْمُتُونُ ، وَسَاعَتِ الظُّنُونُ .

فَقَالَ عَثْمَانُ : اسْكُتْ ، قَطَعَ اللَّهُ لِسَانَكَ ! فَقَدَّ رَعِبَتْ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ .
وَيَتَضَحُّ مِنْ كَلَامِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ وَصَفَ الْأَسَدَ فِي قَصِيدَتِهِ وَصِفَاءً
يَبْدُلُ عَلَى شِدَّةِ الْهَوْلِ الَّذِي يَعْتَرِي قَلْبَ الشَّاعِرِ حِينَ يَتَذَكَّرُ مَنْظَرَ الْأَسَدِ ، وَلَكَذَلِكَ قَالَ لَهُ
عَثْمَانُ " وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحْسِبُكَ جَبَانًا هِدَانًا ! " . فَأَخَذَ أَبُو زَبِيدٍ يَدَافِعُ عَنِ نَفْسِهِ أَمَامَ
الْخَلِيفَةِ وَيَذَكِّرُ لَهُ الْمَوْقِفَ الَّذِي رَأَى فِيهِ أَسَدًا وَمَا شَاهَدَهُ بِعَيْنَيْهِ مِنْ أَهْوَالِ .

وَيَبْدَأُ أَبُو زَبِيدٍ فِي تَصْوِيرِ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الَّذِي يَظُنُّ ذَكَرَهُ يَتَجَدَّدُ فِي قَلْبِهِ فَيَقُولُ :
خَرَجْتُ فِي صِيَابَةِ أَشْرَافِ مِنْ أَفْنَاءِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ ، ذُو هَيْبَةٍ وَشَارَةِ حَسَنَةٍ " .
فَيَذَكِّرُ أَبُو زَبِيدٍ أَنَّهُ خَرَجَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ وَأَخْلَصَهُمْ نَسَبًا ، مِنْ مَجْمُوعَةٍ
مِنَ الْقِبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ ، مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ وَأَحْسَنِهِمْ مَلْبَسًا .
وَأَسْرَعَتْ بِهِمُ الْإِبِلُ وَتَوَالَتْ بَعْضُهُمْ فِي أَنْبَارِ بَعْضٍ ، وَقَذَفْتُهُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ،
وَكَاتُوا يَقْضُونَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَمْرَةَ الْغَسَّاسِيَّ مَلِكَ الشَّامِ ، وَقَدْ أَمْتَدَّ وَطَالَ بِهِمْ

المسير في شدة الحر . ثم يأخذ أبو زبيد فرسه ، وصف شدة الحر ، الذي عاتوا منه . فيذكر لذلك دلالات ، فالريق يجف من العطش وكأن الأفواه معصوبة والشفاه أيضاً تجف من الحر وكأنها تذبل ، وقد قلت المياه ونشفت وكأنما يزيد نجم الجوزاء من اللهب المشتعل بالأرض الصحراوية الغليظة ، الكثيرة الحصى . وصارت الحرارة في أشدها ، واشتد الحر على صغار الجراد ، فصدر منه صوت ممتد . ويضربون المثل للأمر يشتد حتى يلقى صاحبه بقولهم " صر الجنب " عندئذ صاح أحد المرتحلين بالركب أن انزلوا للقبولة في منعطف هذا الوادي ، فنزلوا ، وإذا هم بواد يكثر به الشجر الكثيف المتنق المشتبك ، والماء يتغلل الأشجار ، فيسيل ظاهراً على وجه الأرض ظهوراً قليلاً . ويكثر الذباب على الأشجار المتكاثفة ، فيسمع لطيراته بين العشب والشجر غنه ، وكذلك يسمع صوت للطيور التي تعيش به . فأوقفوا راحلهم في هذا الوادي الخصيب، ووضعوا أغراضهم عند جذوع الأشجار العظيمة المتسعة ، وأكلوا ، وشربوا الماء البارد .

وبينما أبو زبيد يصف حرَّ ذلك اليوم وتطاوله كآته لا يريد أن يزول ، نظر فوجد الخيل تنصب أنفها للتسمع " وهي تفعل ذلك عند المخافة " وتضرب الأرض بقدميها كأنها تحفرها ، وتدور في مكاتها قلقاً ، وتحمم ، وتبول فزعاً وكأنها ذليلة خاضعة من الخوف .

أما الإبل فأحجمت وتأخرت إلى الوراء ، وكذلك البغال تراجعت للخلف . وأصاب الفزع الإبل كافة حتى المقيد بالشكال أو العقال هبَّ ليعدوا وهو مقيد .

عند ذلك أدرك الركب أنهم أمام الأسد لا محالة . فأمرع الرجال يستلون سيوفهم من الأعماد ، ثم اصطفوا صفاً واحداً في مواجهة الأسد . وأقبل عليهم الأسد يتمائل ويختال في مشيته كأنه يميل على جنبه من شدة الأكم . أو كأنه مربوط في هجار ، وهو الحبل يعقد في يد البعير ورجله في أحد الشقين . ويصدر عنه أصوات عالية ، هي مزيج من الزفير والغطيط ، وعيناه لها وميض . وفي سيره يُسمع صوت مفاصله إذ يثقلها حمله ، كأنما يطأ شجراً يابساً وإتما هو يطأ رملًا .

ويصف هيئة الأسد : " فإذا هامة كالمجن وإذا خد كالمسن " .
 إذ يصف رأسه الضخم بأنه كالمجن وهو الترس العريض ، وخذة أملس كالمسن وهو
 الحجر الذى يسن عليه السيف والسكين .
 والعينان بتلألآن وقد شابهتهما حمرة يسيرة ، والعنق ضخّم كثير اللحم وهو نو
 لهزيمة " وهى مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن من اللحي عند أصول الحنكين " .
 سمينة مسترخية ، وممتلئة الكتفين ، وكذلك صدره ممتلئء باللحم . ويصف أطرافه
 فالساعد مجدول ، والعضد مفتول ، والكف ذو برائن (١) خشنة غليظة ، وفيها
 مخالب معقوفة الرأس .

ثم يصف حركات الأسد ، فيقول ، فضرب الأرض بيديه فأثار الغبار ، وكشر
 عن أنيابه ، فظهرت أنيابه المصقولة ، وقمه المتسع كأنه الغار واسع الخرق . ثم
 تهباً للوثوب ، فرفع يديه ، ودفّع وكبه برجليه ، حتى استطالت هيئته وشبه ذلك بأن
 صار ظله مثليه .

ثم جلس على استه مفترشاً رجليه وناصباً يديه ، وتجمع مستعداً للوثوب ،
 وتمایل وعبس وجهه ، ثم تهباً للشر وانتفش شعره .
 وانتضى الأسد على أول الركب . وكان رجلاً من بنى فزارة ، غليظاً ، فدىق
 الأسد عنقه فكسره . وسمع صوت كسر عظامه . وأخذ الأسد بلغ نمة بلساته .

ويروى أبو زيد أنه أخذ بحض أصحابه ، ويحثهم أن يتجرأوا ويتقدموا وبعد
 جهد ومشقة وإبطاء منهم ، تشجعوا وأخذوا يصيحون بالأسد ويزجرونه لبيتعد عنهم ،
 ولكنه كره عليهم نافشاً شعره ، وبشبهه فى هذه الحركة ينكر الفتق الحولى العظيم
 الشوك ، فالتزع من بينهم رجلاً ضخّم للبطن عظيمها (رجلاً أعجر ذا حوايا) وكاد
 للرجل لهول ما لاقاه أن تتفرق مفاصله . ثم زار بغيط وتوعد ، وتنفس تنفساً شديداً ،
 وردد الصوت فى حنجرتة ، ونظر بمؤخر عينه ويذكر أبو زيد إحساسه فى هذه
 اللحظات بقول: " فوالله لخلت البرق بتطائر من تحت جفونه ، من عن شماله ويمينه " .

١ - البرثن للأسد كالإصابع للإيمان .

ويذكر رد فعل الجمع المرتحلين ، فيصف رعدة الأيدي ، وضرب الركبة الركبة ، اضطراب الضلوع حتى يُسمع صوتها من الخوف ، واختلاط الأصوات. وقد انفتحت العيون وحثت ذعراً وضمرت البطون من الخوف ، حتى لحق البطن بالظهر ، وصار الرجال لا يستطيعون أن يقيموا صلبهم . وصار الناس يتمنون في أنفسهم الهرب ، والفرار ، وترك الدفاع عن أنفسهم . عندئذ صاح به الخليفة عثمان: أن اسكت ، قطع الله لساتك ، فقد رعبت قلوب المؤمنين .

وصف الأسد في شعر أبي زيد :

وصف أبو زيد الأسد شعراً في سبع قصائد ، وهو دائماً في وصفه للأسد يصف للرعب والهلع ، الذي يتتاب القوم حين يفاجأون برؤيته . ومرد تلك أنه لقيه ذات يوم بالنجف ، وشاهد منه مشاهد لم تبرح خياله . وقد لأمه عثمان بن عفان (رضي الله عنه) على كثرة وصفه للأسد ، وصفاً يبعث الرعب في قلوب المؤمنين . وتدل الأخبار (١) أنه حينما قال قصيدته في كلبه أكلد حين لقيه أسد فافترمسه ، أن " لأمه قومه على كثرة وصفه للأسد ، وقالوا له : قد خفنا أن تسبنا للعرب بوصفك له . قال لو رأيتم منه ما رأيتم ، أو لقيكم مالمقى أكلد لما لمتمونى . ثم أمسك عن وصفه فلم يصفه بعد ذلك في شعره حتى مات ."

وهو في وصفه الأسد يصف جسده وهيئته وصوته :

فيصف شعره للكثيف المجتمع على كاهله ، وقد نقشه وقت هجومه على الفريسة ، فصار مجموعات كثيفة متقطعة ، يقول :

له زَيْرٌ كاللبد طارت رعلبلاً
وكتفان كالشرخين عيل مَضْبِر (٢)

ويشبه شعره للكثيف على عنقه وكاهله ، في بيت آخر بالهودج المغطى بالقطيفة ، المصنوعة من أنهار الإبل . يقول :

ورد كان على أكتاده حرجاً
في قُرطف من نصيل النجت مخدور (٣)

١ - الأغاني ج ١٢ ص ١٢٥ ، معجم الأبناء ج ١ ص ٢٠١

٢ - ديوان أبي زيد ص ٦٠٧

٣ - المرجع السابق ص ٦٢٣

- وتارة ثالثة يصف شعره الكثير المتداخل ، الذى يغطى جسده ، وكأنه قد التحف ببرنص يغطى جسده بأكمله . يقول :
- ضرغامة أهرت الشدقين ذى لبد
كأنه برنسا فى الغاب ملتفع (١)
- وفى البيت التالى يصف جلد الأسد ، وشعره المتدلى ، ويشبّهه بالقطيفة ، التى يرتديها الراعى . يقول :
- كأن أثواب نَقَاد قَدِرْنَ له
يَعْلُو بِخَمَلَتِهَا كَهَبَاءِ هُدَابَا (٢)
- ويصف قوائمه المرتفعة ، ويشبّهها بعيدان الرجل القوية المرتفعة ، يقول :
- أوذا شصائب فى أحنائه شمم
رخو الملاط غبيطا فوق صرصور (٣)
- وأما رأسه فقوى كالصخرة ، والعينان متوهجتان كالجمرتين :
- وعينان كالتوقبين فى قبلى صخرة
يُرى فيهما كالجمرتين التَبَصْرُ (٤)
- ويشبه رأسه مرة أخرى بالحجر ، والعينان كأنهما حفرتان حفرتا بفأس حديدية: يقول:
- كأن عينيه فى وقبين من حجر
قبضا اقتياضاً بأطراف المناقير (٥)
- وعينه تتوهجان فى الظلام ، كأنهما الجمر :
- برلته شطن وعينه فى اللجى
كجمر الغضا فى وجهه الشر ظاهر (٦)
- ويصف نظرتّه من جانب الأذن :
- رحيب مشقّ الشدق أعضف ضيفم
له لحظات مشرفات ومحجر (٧)
- وهو فى البيت السابق يصف أيضاً اتساع شدقه ، بقوله : " رحيب مشقّ الشدق " .
- وفى بيت آخر يصف اتساع شدقه :
- ضرغامة أهرت الشدقين ذى لبد
كأنه برنسا فى الغاب ملتفع (٨)
- وأما أصول الحنكين ، فهى قوية شديدة ، يقول :

١ - المرجع السابق ص ٦٤٣

٢ - المرجع نفسه ص ٥٩٠

٣ - ص ٦٢٣

٤ - ص ٦٠٨

٥ - ص ٦٢٣

٦ - ص ٦١٣

٧ - ص ٦٠٧

٨ - ص ٦٤٣

منيع ويحمى كل واد يرومه (١) شديد أصول الماضغين مكابير (١)

ورأسه طويل ، ولذلك فقد قصر عنه عذاره ، يقول :

خان العذار بما في الرأس من طول وتسير الجبل عنه أي تسير (٢)

وأما الأنياب فهي حاده ، إذا قلص شدقيه عنها بدت كأنها الخناجر ، يقول :

يدلُّ بأنياب حداد كأنسها إذا قلص الأشداق عنها خناجر (٣)

ويفسها في بيت آخر بأنها مائلة :

فلا بعنقكم مهصر الناب عنبس (٤) عبوس له خلق غليظ غضنفر (٤)

ويشير إلى متانة وقوة الكتفين ، مع امتلاكهما باللحم . يقول :

له زبر كاللبد طارت رعايلاً وكفتان كالشرخين عبل مضبر (٥)

ومن طبيعة خلقة الأسد أن خطوات ساعديه متقاربة وسريعة ، وينكر هذه الصفة الجوارح

زبيد في شعره ، يقول :

إلى مقارب خطو الساعدين له فوق السراة كنفري القارج الغضن (٦)

وفي البيت للتالي يشبهه وهو يمشى مقارباً خطوه ، كان ساعديه كسرتا ثم جبرتا . يقول :

إذا تبهنس يمشى خلفه وعشا وعسى السواعد منه بعد تكسير (٧)

ويضيف إلى هذه الصفة في مشيته صفة أخرى ، وهي ميل الأرساغ ، " والرسم :

مفصل ما بين الساعد والكف" ، يقول :

مقابل الخطو في أرساغه فدع ورداً يذفق أوساط العياهير (٨)

ويقول : كأننا بتفادي أهل بعضهم من ذي زوائد في أرساغه فدع (٩)

عولما برائته فهي خشنة ، يقول :

١ - ص ٦١٣

٢ - ص ٦٢٤

٣ - ص ٦١٣

٤ - ص ٦٠٦

٥ - ص ٦٠٧

٦ - ص ٦١٧

٧ - ص ٦٢٣

٨ - ص ٦٢٤

٩ - ص ٦٤٣

- برائته شثنٌ وعينه في الدجى كجمر الغضا في وجهه الشر ظاهر (١)
- ولون البرائن يميل إلى السمرة . يقول :
- بسمر كالمحالق في فتوخ يقبها قضة الأرض الدخيس (٢)
- وكما يصف أجزاءه يصف هيئته ، فلوئه أحمر يضرب إلى صفره ، إذ يصفه بأنه " ورد " ، وهذه الصفة تدل على لونه ، يقول :
- ورد كأن على أكتاده حرجا في قرطف من نسيل التنجت مخدور (٣)
- وأما زئيره فهو عال ، تكاد تتأثر به الجبال الراسيات ، يقول :
- من الأسد عادي ، يكاد لصوته رؤوس الجبال الراسيات تقعر (٤)
- ويشبه الزئير في هذا البيت بالرعد :
- كأن اهترام الرعد خالط جوفه إذا حن فيه الخيزران المثجر (٥)
- ويصف زئير الأسد وصفاً دقيقاً ، فهو صوت فيه حشرجة ، كأنما هو صوت صائر من أحشاء إسمان يشتكى صورته ، يقول :
- للصدر منه عويل فيه حشرجة كأنما هي في أحشاء مصدور (٦)
- وأما هيئة مشبته واختياله ، فتأتي موقفة لدى الشاعر ، إذ يصفه بأنه يمشى يتبختر :
- إذا تبهنس يمشى خلته وعشا وعى السواعد منه بعد تكسير (٧)
- ويقول :
- مبهنساً حيث يمشى ليس بفزعه مشمراً للدواهي أي تشمير (٨)

١ - ص ٦١٣

٢ - ص ٦٣٢ ، السمرة : المخالب ، والمحالق : المراسي شبيهاً في حنتها . في فتوخ : في استرخاء العين . القضة : الحصى الصغير ، الدخيس : اللحم الذي في كفيه . قال الجاحظ في الحيوان : ٢٨٤/٤ " ومخالب الأسد وأشباه الأسد من السباع ، تكون في غلف " الغطاء الذي يدخل فيه مخالبه في يده ليسترها إذا وطئت على بطون أكلها ترفعت للمخالب ، وبخلت في أكمام لها " . وهو قول أبي زيد وأشد البيت .

٣ - ص ٦٢٣

٤ - ص ٦٠٨

٥ - ص ٦٠٨

٦ - ص ٦٢٥

٧ - ص ٦٢٣ تبهنس : يتبختر

٨ - ص ٦٢٤

- وأما هيئته ومنظره : فهو عبوس ، وعضنفر (١) ، يقول :
- فلا يعلقتكم مهصرُ النابِ عَنبَسُ عَبُوسٌ لَهُ خَلْقٌ غَلِيظٌ غَضَنْفَرُ (٢)
- وفي هذا البيت يصفه بأنه عبوس ، شمس (٣) ، مصلخد . يقول :
- عبوس شمس مصلخد مكابر جريء على الأقران للقرن قاهر (٤)
- وهو ضرغامة (٥) ، يقول :
- ضرغامة أهرت الشدقين ذي لبدٍ كأنه برنسا في الغاب ملتفع (٦)
- ومن ينظر إليه ، يجد الشر بالياً على وجهه :
- برائته شثنٌ وعيناه في الدجى كجمر الغضا في وجهه الشر ظاهر (٧)
- وصف العرين واللبوة والأشبال :**

ويصف عرين الأسد فهو يمتلىء بشجر العناب المتداخل الكثيف ، وقريب منه موضع الماء ، يقول :

ابن عريسة عئابها أشب ودون غايتها مستورد شرع (٨)

والعرين مفروش بنباتات جافة هشة ، وكأته مأوى لرجل أرمل عجوز ، يقول :

فأسريا وهما سفا همومها إلى عرين كعش الأرملة اليفن (٩)

ويصف اللبوة بأنها عضوض ، متوسطة العمر ، وقد قاربت أن تضع ، فأشرق ضرعها . يقول :

- ١ - عبوس : جلد ما بين ضئيتي رجليه وجهته وهي صفة للأسد ، غضنفر : غليظ الخلق .
٢ - ص ٦٠٦
- ٣ - الشمسون : صعب الخلق ، مصلخد : منتصب قائماً .
٤ - ص ١١٢
- ٥ - الضرغامة : هو الأسد الشديد الضاري .
٦ - ديوان أبي زييد ص ٦٤٢
- ٧ - المرجع السابق ص ١١٢
- ٨ - ابن أقام ، عريسة : مأوى الأسد . عئابها أشب : شجر العناب متداخل ، مستورد موضع الورد
الديوان ص ١٤٤
- ٩ - ص ٦٦٧

بثنى القريتين له عيالٌ بنوه وملمع نصف ضروس (١)
والأسد ليست له شعبة سوى ليوته وأشباله ، يقول :
بالتنى أسفل من جماء ليس له إلا ينيته وإلا عرسه شيع (٢)
ويصف ليوته لها ستة من الأشبال ، وعظام صدرها بارزة ، وشعر جسدها قصير ،
يقول :

حتى إذا ورد الغزوال وانتبهت لحسه أم أجر ستة شزن
بادٍ جناجنها حصاء قد أفلت لهن يبهرن تعبيراً على سدن (٣)
وفي قصيدة أخرى يصف شبليين بقبح المنظر ، وأمهما ليوته قليلة الشعر ،
وهي حامل وقد ظلت ترضعهما ، حتى إذا ذهب لبنها من الوح ، صدت عنهما ثم
أشبعها الأسد طعاماً ، ولكنها ظلت في فطام الشبليين ، ويصف لونهما فهو أحمر مائل
إلى الصفرة " وهو لون الأسد " وقد عوضهما أبوهما الأسد عن لبن الأم ، بأن قدم
لهم قرانسه من القوم . يقول :

أبو شتيمين من حصاء قد أفلت كأن أطباءها في رفغها رقع
أعطتها جهدها حتى إذا وجمت صدت وصد فلا غيل ولا جدع
ثم استفاها فلم تقطع فطامهما عن التصبب لا شعب ولا قدع
وردن قد أخذوا أخلاف شحمهما ففيهما عزمة الظلماء والجشع
غذاهما بلحام القوم مذ شذنا فما يزال بوصلى راكب يضع (٤)
وتارة أخرى يصف طعام الأشبال ، فهو الفريسة التي افترسها الأسد ، وعفوها في
التراب ، فتلهلت ملابسها . يقول :
غزبن بكل منعمر سليب يجاء به قد نسل الدريس (٥)

١ - ص ٦٣ .

٢ - ص ٦٤٤ .

٣ - ص ٦٦٧ جناجنها : عظام الصدر ، حصاء : قليلة الشعر .

٤ - الديوان ص ٦٤٥ أبو شتيمين : قبيح المنظر ، حصاء : سقط شعرها ، أفلت : حملت ، غيل : أن
ترضع المرأة أولادها وهي حامل ، جدع : سوء غذاء ، استقى : شدة الأكل بعد قلته ، التصبب : اكتساف
للحم للسمن بعد الطعام ، يضع : يضر

٥ - ص ٦٣٠ ، نسل : سقط ، الدريس : خلقان للثياب .

موازنة بين وصف الأسد عند أبي زبيد ، ووصفه عند غيره من الشعراء :

تطالعنا صورة الأسد عند بعض الشعراء - غير أبي زبيد - ونذكر في مقدمتهم المتنبي في قصيدته الشهيرة في مدح بدر بن عمار ، وكذلك عند البحترى في قصيدته في مدح الفتح بن خاقان . وقد أورد صاحب الأملاني مجلساً في وصف الأسد، إذ تبارى عند يزيد بن معاوية: أبو زبيد ، وجميل بن معمر العنزي ، والأخطل التغلبي في وصف الأسد ، وأورد صاحب الأملاني لكل واحد من الثلاثة مقطعة في وصف الأسد(١). وكذلك ورد وصف للأسد في جزء من قصيدة لعروة بن الورد.

فأما المتنبي :

فقد وصف الأسد في قصيدته التي مدح بها بدر بن عمار لما خرج إلى أسد ، وقد أعجله عن مل سيفه ، فضربه بالسيف فمرغه في التراب . ومما جاء لأبي

الطيب المتنبي في قصيدته (٢) :

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| لمن انخرت الصارم المصقولا | أمعّر الليث الهزير بسوطه |
| نضدت بها هام الرفاق تلولا | وقعت على الأردن منه بنية |
| وردت الفرات زئيرة والنيلا | ورد إذا ورد البحيرة شارباً |
| في غيله من لبنتيه غيلا | مغضّب بدم الفوارس لايم |
| سحت النجى ناز الفريق حلولا | ماقويت عيناه إلا ظنتا |
| لا يعرف التحريم والتحليلا | فسي وحدة الرهبان إلا أنه |
| فكأنه آسي يجم غيلا | يطأ الثرى مترقاً من تيهه |
| حتى تصير لرأسه إكليلا | ويرد عقرته إلى يافوخه |
| عنها لشدة غيظه مشغولا | وتظنه مما يرمجر نفسه |
| ركب الكمي جواده مشغولا | قصرت مخافته الخطى فكأما |

١ - نيل الأملاني والتواري لأبي عن إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ص ١٨٣ : ١٨٥

٢ - شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي ج ٣ ص ٣٥٤ : ٣٥٧

أَلْقَى فَرِيصَتَهُ وَبَرِيرُ دُونَهَا وَقَرُبَتْ قُرْباً خَالَه تَطْفِيراً
فَتَشَابَهَ لِلخَائِفَانِ فِي إِقْدَامِهِ وَتَخَالَفَا فِي بَلِّكَ المَأْكُولَا
أَسَدٌ يَرَى عَضْوِيَّهَ فِيكَ كَلِيهِمَا مَتَّأً أَيْلَ وَسَاعِدَا مَقْتُولَا

ويختلف وصف أبي زييد للأسد في قصائده ، عن وصف المتنبي له . فأبو زييد في معظم قصائده التي ورنيت في وصف الأسد ، يبدأ بذكر جماعة من قومه يسيرون بالليل ثم لناخوا مطيهم ليستريحوا . وكان الأسد يرقبهم ، وولجأهم ، ففترقت للمطايا ، ولانت بالفرار ، وفزعت للجماعة ، واقترس الأسد رجلاً أو اثنين منهم ، ولاذ الباقون بالفرار . ثم يصف الأسد وهو يلتهم فريسته ، ويصف الصريع وقد تلتطخ بالدم ، وتطرت جثته بالتراب ، وأخيراً يصف الأسد في مشيته وتربيه ، بعد افترايين للفريسة وهو يجول متبختراً حول فريسته سعياً بصنعيه . أما المتنبي في قصيدته التي وصف فيها أسداً فقد كان يدل على شجاعة الممدوح الذي لم يجبن أمام الأسد ولم يرتع ، ولم يملكه الهول . بل لقد أعجله الأسد عن مل سيفه ، فضربه للممدوح بالسوط فمرغه في التراب .

ويتعجب المتنبي من شجاعة ممدوحه للذي تمكن من قتل الأسد بسوطه ، ومرغه في التراب دون أن يستل سيفه ، وهذا يدل على شجاعته . ثم يستطرد في وصف الأسد ، ويتكلم في ذلك ، وينكر تشابه الممدوح والأسد في الجرأة والإقدام والقوة الجسدية . ثم ينكر بخل الأسد وكرم الممدوح . وقد خلت الأسد قوته ، أتمام قوة وشجاعة الممدوح ، فانهزم وطرحه الممدوح أرضاً قتيلاً .

وقد أعجب صاحب المثل العسائر (١) بوصف المتنبي للأسد وحكم بين هذا للجزء من قصيدته ، وقصيدة للبحتري في وصف الأسد ، وفضل قصيدة المتنبي ، يقول " وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذي يشهد به للحق وتفتيه للعصبية أنكره ، وهو أن معاني أبي للطيب أكثر عدداً ، وأسد مقصداً ، ألا ترى أن للبحتري قد قصر

١ - مثل العسائر في لب الكتب والشاعر نضياء الدين بن الأثير ص ٢٨٧

مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح في تشبيهه بالأسد مرة ، وتفضيله عليه أخرى ، ولم يأت بشيء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد وهو قوله :

أمعسر الليث الهزير بسوطه . لمن انخرت الصارم المصقولا ؟
ثم إنه تغنن في ذكر الأسد ، فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله في انفراده في جنسه ، وفي هيئته مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته وشبه الممدوح به في الشجاعة ، وفضله عليه بالسقاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التي بعثت الأسد على قتل نفسه بقاء الممدوح ، وأخرج ذلك في أحسن مخرج ، وأبرزه في أشرف معنى .

وقد تشابه وصف المتنبي ووصف أبي زبيد من عدة وجوه ، كما اختلفا في وجوه أخرى وسنذكر ذلك إن شاء الله .

فأما وصف صورته وهيئته : فنلاحظ اتفاقهما في وصف لونه بدقة ، وهو لون الحمرة المائل إلى الصفرة ، وذلك من خلال كلمة " ورد " . يقول المتنبي :

ورد إذا ورد البحيرة شاربياً ورد الفرات زئيره والنريلا
ويقول أبو زبيد :

ورد كأن على أكتاده حرجا في قرطف من نسيل النجت مخدور (١)
وكذلك وصفهما للشعر المجتمع على كتفيه ، يقول المتنبي :

متخضب بدم الفوارس لابس في غيله من لبنتيه غيلا

فيصف الشعر المجتمع على كتفيه ويشبهه بجزارته بالشجر الكثيف ، وهذا المعنى ورد عند أبي زبيد في بيته السابق ، إذ يشبه الشعر الكثيف المجتمع على رأسه وكاهله بالهودج المغطى بالقטיפ المصنوعة من أبار الإبل .

وينفرد المتنبي بوصف حركة الشعر الكثيف على رأسه وقفاه ، إذ يتحرك ناحية الرأس ، فيصير كأنه تاجاً على رأس الأسد ، يقول :

١ - ديوان أبي زبيد ص ٦٢٣

ويرد عفرته على يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا
كما ينفرد أبو زبيد بوصف شعر رأسه وقت هجومه على الفريسه ، يقول :
له زُبْرٌ كاللبد طارت رعايلاً وكتفان كالشرخين عبل مضمراً (١)
فهو ينقش شعره وقت الهجوم فيصير مجموعات كثيفة متقطعة .
وأما وصفهما للون البرائن الأسد ، فيقول المتنبي : " متخضب بدم الفوارس " ،
فيصف لون البرائن القالم ، وكأن الأسد قد تخضب بدماء من الفترسهم من الفرسان .
وأما أبو زبيد فيقول :
بسيمر كالمحاليق في فتوخ بقيها قصة : الأرض الدخيس (٢)
فيضيف إلى لون البرائن الأسمر (وهو لون ناشيء من تراكم الدماء ومرور الوقت
عليها) ، صفة الحدة ، فهي قوية وحادة .
وأما وصف العينين ، فقد أورد المتنبي :
ما قوبلت عيناه إلا ظنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا
فيصف منظر عيني الأسد ، ويصف لمعاتهما وحدتهما ويشبه منظرهما بالنار
التي توقدها الجماعة النازلة بالليل .
وتشبيهه عيني الأسد بالنار ورد عند أبي زبيد في أكثر من بيت . يقول :
وعينان كالقوبين في قبيل صخرة يرى فيهما كالحمرتين التبصر (٣)
وأيضاً يصف توهجهما في الظلام كأنهما قطعتان من الجمر . يقول :
برائته شثن وعيناه في الدجى كحمر الغضا في وجهه الشر ظاهر (٤)
ويصف المتنبي أفراده في جنسه ، يقول :
فى وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا
وقد وفق المتنبي في وصف حياته منفرداً إذ شبهه بالراهب ثم نكر الفرق بين الأسد
والراهب . إذ الأسد لا يعرف الحرام والحلال .
بينما ينكر أبو زبيد أن ليس للأسد شيعة سوى لبوته وأشبائه يقول :

١ - المرجع السابق ص ٦٠٧

٢ - ص ٦٠٧

٣ - ص ٦٠٨

٤ - ص ٦١٣

- بالتنسى أسفل من جماء ليس له
وأما وصف زئير الأسد ، فيقول المتنبي :
- ورد إذا ورد البحيرة شارباً
ورد الفرات زئيره والنيل
فيصف شدة ارتفاع الصوت ، حتى إنه ليصل من بحيرة طبرية إلى الفرات والنيل .
وأما أبو زييد فقد وصف صوت زئير الأسد وصفاً دقيقاً ، إذ وصف شدة الصوت
وارتفاعه حتى إنه ليصل إلى أعلى الجبال الراسيات ، التي تكاد تنقلب مخافة هذا
الصوت ، يقول :
- من الأسدِ عادى ، يكاد لصوته
رؤوس الجبال الراسيات تقعر^(١)
ويشبه غلظة صوت الزئير بصوت الرعد المدوي ، يقول :
- كان اهتزاز الرعد خالط جوفه
إذا حن فيه الخيزران المثجراً^(٢)
وفي البيت التالي نرى إجابة أبي زييد ودقته في وصف صوت الزئير وما فيه من
حشجة وخشونة كأنما هو صوت صادر من إنسان مريض بصدرة . يقول :
- للصدر منه عويل فيه حشجة^(٣)
كأنما هي في أحشاء مصدور^(٤)
وأما هيئة مشيه واختياله : يقول المتنبي :
- يطأ الثرى مترقفاً من تيهه
فكأنه آسى يجس عليلاً
إذ يصور المتنبي رفته انمتاهية في خطوه على الأرض ، لشدة تعاجبه بنفسه
واختياله ، بحركة الطبيب وهو يجس المريض بيده برقة وعطف . وقد نجح المتنبي
في تصوير هذا المعنى بدقة .
- بينما أبو زييد يصف مشيته يتبختر ، يقول :
- إذا تبهنس يمشى خلته وعثاً^(٥)
وعى السواعد منه بعد تكسير^(٥)
فجعل هيئته في مشيه يتعجب ويتبختر ، ورقته في وقع خطواته على الأرض ،
كأنما قد كسر ساعده ثم جبراً بعد ذلك . ولذلك فهو يترفق في خطواته .

١ - ص ٦٤٤

٢ - ص ٦٠٨

٣ - ص ٦٠٨ المثجر : الغليظ العريض

٤ - ص ٦٢٥

٥ - ص ٦٢٣ تبهنس : مشى يتبختر ، وعثاً : يمشى في رعث وهو ماكثر فيه الرمال .

وكلا الشاعرين قد وُفق في أداء هذا المعنى .

وأما البحترى : فله قصيدة في مدح الفتح بن خاقان ، وذكر منازلته الأسد .

مطلعها :

أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُ يَسْرِي لـ " زينبا "

وورد بالقصيدة في نكر الأسد قوله :

غَدَاةً لَقَيْتَ اللَّيْثَ وَاللَّيْثُ مُخْبِرٌ
يُحْضِنُهُ مِنْ نَهْرِ نَيْزِكَ مَعْقِلٌ
يَرُودُ مَعَاراً بِالظُّوَاهِرِ مُكْتَبِياً
يَلَاعِبُ فِيهِ أَفْحَوَاتِياً مُفَضَّضاً
إِذَا شَاءَ غَدَى عَاتَةً ، أَوْ عَدَاً عَلَى
يَجُرُّ إِلَى أَشْبَالِهِ كُلِّ شَارِقٍ
وَمَنْ يَبِغْ ظُلماً فِي حَرِيمِكَ يَنْصَرِفْ
شَهِدْتُ نَقْدَ أَنْصَفْتَهُ يَوْمَ تَنْبَرِي
فَلَمْ أَرْضِ غَامَيْنِ أَصْدَقٍ مِنْكُمْ
هَزَبَرٌ مَشَى بِيغْيِ هَزْبِراً ، وَأَغْلَبَ
أَدْلَ بِشَقْبٍ ثُمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعاً ،
فَلَمْ يُغْنِهِ أَنْ كَرَّرَ نَحْوَكَ مُقْبِلاً ،
حَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفَ ، لَاعَزَمَكَ أَنْتَنَى

يَحْدُدُ نَابِياً لِلْقَاءِ وَمِخْلَبِياً
مَنْبِيعَ تَسَامَى غَابَهُ وَتَأَشْكِبِياً
وَيَحْتَمِلُ رَوْضاً بِالْأَبْطَاحِ مُعْشِبِياً
يَبِصُّ ، وَحَوْدَاتِياً عَلَى الْمَاءِ مُذْهِبِياً
عَقَائِلِ سِرْبِ ، أَوْ تَقْمَصَنَّ رِبْرِبِياً
عَبِيطاً مَدْمِياً أَوْ رَمِيلاً مُعْضِبِياً
إِلَى تَلْفِ أَوْ يُثْنُ خَزْيَانَ أُخْيِياً
لَهُ مُصَلِتاً عَضْباً مِنَ الْبَيْضِ مِقْضِبِياً
عِرَاكاً إِذَا الْهَيْبَةُ النَّكْسُ كُذْبِياً !
مِنَ الْقَوْمِ يَغْشَى - بِاسِلَ الْوَجْهِ - أَغْلِبِياً
رَأَى لَهَا أَمْضَى جَنَاتِياً وَأَشْغِبِياً
وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرِبِياً
وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُنْكَبِياً
وَلَا يَنْكَرُ أَرْتَنَّتْ ، وَلَا حَادَهُ نَبِياً

والبحترى يبدأ هذا الجزء من القصيدة بوصف حياة الأسد ، وينكر أنيابه

ومخالبه الحادة نكراً سريعاً يقول :

غَدَاةً لَقَيْتَ اللَّيْثَ وَاللَّيْثُ مُخْبِرٌ

وإذا قارنا هذا الوصف ، بوصف أبي زيد للأنياب والبرائن ، لتفوق أبو زيد إذ

يصف الناب الحاد المائل للأسد ، يقول :

- لَمَّا يَعْلَمُكُمْ مِقْصِرُ الْأَنْبَابِ حَنْبَسٌ
عَبَسَ لَهُ خَلْقٌ غَلِيظٌ غَضَنْفَرٌ (١)
- ويشبه الأنبياء بالخناجر يقول :
رُودٌ بِأَنْبَابٍ حَسَادٍ كَأَنَّهَا
وَأَمَّا الْمِبْرَاتِنُ فَيُصِفُهَا بِالْحُسُونَةِ ، يَقُولُ :
- يُرَائِنَهُ شُئْنٌ وَعَيْنَاهُ فِي الدَّجَى
كَجَمْرِ الْغَضَا فِي وَجْهِهِ الشَّرِّ ظَاهِرٌ (٢)
- كما يصفها بالسمررة والحدة في قوله :
يَسْمُرُ كَالْمَحَلَّقِ فِي فُتُوخٍ
يُقْبِهَا قَضَّةَ الْأَرْضِ النَّخِيسُ (٣)
- ثم يصف للبحترى عرين الأسد ، فهو قريب من النهر ، وبه أشجار كثيرة ملتفة .
يقول :
- يُحْصِنُهُ مِنْ نَهْرٍ تَيْزَكٌ مَعْقَلٌ
مَنْعٌ تَسَامَى غَايِبُهُ وَتَأَشُّبَا
وله كهف يتردد عليه في أعلى الوادي ، رماله ناعمة وتنتبت فيه الأزهار ، يقول :
- يُرُودٌ مَغَاراً بِالظَّوَاهِرِ مَكْتَبَا
وَيَحْتَلُّ رَوْضاً بِالْأَبَاطِجِ مَعْشَبَا
ويلاعب فيه أقحواتاً مُفَضَّضَا
بِيصٌّ ، وَحُودَاتَا عَلَى الْمَاءِ مَذْهَبَا
وكذلك وصف أبي زبيد للعرين ، فهو عنده يمتلىء بشجر العناب المتداخل الكثيف ،
وقريب منه موضع الماء ، يقول :
- أَبْنٌ عَرِيْسَةٌ حَبَابَهَا أَشْبَبُ
وَدُونَ غَايِبَتِهَا مُسْتَوْرِدٌ شَرَعٌ (٥)
- ويصف أبو زبيد العرين فهو مفروش بنباتات جافة هشة ، وكأنه مأوى لرجل أرملة
عجوز ، يقول :
- قَاسِرِيًّا وَمَكَتِفًا هُمُومَهُمَا
إِلَى عَرِينٍ كُضِّ الْأَرْمَلِ لِلْيَفْنِ (٦)
- ويصف للبحترى غذاء الأسد وأشباله ، فهو فراسه من الحمر ، أو للبقرة الوحشى
وهو كل صباح يقم لأشباله ذبيحة ملطخة بالدم . يقول :

١ - ديوان أبي زبيد للطائي ص ٦٠٦

٢ - المرجع السابق ص ٦١٢

٣ - المرجع نفسه ص ٦١٢

٤ - ص ٦٢٢

٥ - ص ٦٤٤

٦ - ص ٦٦٧

إذا شاء غادى عاتةً ، أو عدا على
 يجزُّ إلى أشباله كلَّ شارقٍ
 أما أبو زيد ، فهو يذكر أن الأسد يطعم أشباله حين يشبون ويبلغون الفطام فرانسه
 من القوم ، يقول :

غذاهما بلحام القوم مذ شدنا
 وتلرة أخرى يصف هذه الفريسة البشرية ، وقد تعفرت في التراب وتهللت ملابسها ،
 يقول : غدين بكل منعفر سليب
 فما يزال بوصلى راكب يصنع (٢)
 يجاء به وقد نسل الدريس (٣)

وصف الأسد في مجلس يزيد :

أورد صاحب الأمالي (٤) خبراً عن مجلس ليزيد بن معاوية اجتمع عنده أبو زيد
 الطائي ، وجميل بن مصر العذري ، والأخطل التغلبي ، وطلب منهم يزيد أن يصفوا
 الأسد . فتبارى الشعراء الثلاثة في وصفه ، وتقدمهم أبو زيد يصف الأسد أولاً ، قال :
 خَبِئْتَنَ أَشْوَمٌ ذَوْتَهُمْ
 وَذُو أَهْلَوَيْلٍ وَذُو تَجَهَّمِ
 وَعَيْنُهُ مِثْلُ الشَّهَابِ الْمُضْرَمِ
 مَشَّتِكَ الْأَنْيَابُ نَو تَبْرَطُمِ
 سَاطِ عَلَى اللَّيْثِ الْهَزْبِرِ الضِّيغِمِ
 وَهَامُهُ كَالْحَجَرِ الْمَلْمَمِ
 وقال جميل :

لَيْثٌ عَرِينٌ ضَيِّغَمٌ غَضَنْفَرُ
 يَخَافُ مِنْ أَنْيَابِهِ وَيَذْعَرُ
 لَهُ عَلَى كُلِّ السَّبَاعِ مَقْفَرُ
 مَدَاخِلٌ فِي خَلْقِهِ مُضَبَّرُ
 مَا أَنْ يَزَالَ قَائِمًا يَزْمَجِرُ
 قُضَائِقُضٌ شَتْنُ الْبِنَانِ قَسْوَرُ
 وقال الأخطل :

قُضَائِقُضٌ جَهْمٌ شَدِيدُ الْمَقْصِلِ
 شَرَّ نَبْتِ الْكَفَيْنِ حَامِي أَشْنَبِلِ
 مَلْمَمٌ الْهَامِي كَمَشَى الْأَرْجَلِ
 مَضَبَّرُ السَّاعِدِ نُو تَعْتَكُلِ
 إِذَا لَقَاهُ بَطَلٌ لَمْ يَنْكَلِ
 نُو لَبْدٌ يَقْتَالُ فِي تَمَهَّلِ

١ - عاتة : قطع من بقر الوحش ، عبيطاً : نبيحة ، رميلاً : ملطخ بالدم .

٢ - ص ٦٤٥

٣ - ص ٦٣٠

٤ - نيل الأمالي والتواريخ لأبي علي الطائي البغدادي ص ١٨٢ : ١٨٥

أَنْيَابُهُ فِي فِيهِ مِثْلُ الْأَصْلِ وَعَيْنُهُ مِثْلُ الشَّهَابِ الْمُشْعَلِ
وتلاحظ أن الشعراء الثلاثة اهتموا بوصف هيئة الأسد ، والهيئة التي يبعثها
في النفس .

والألفاظ التي وردت في وصف الأسد عند أبي زبيد تكررت في هذا المجلس
في وصف جميل والأخطل له ، مما يدل أن هذه الألفاظ كانت مستخدمة في تلك البيئة
لدى الشعراء في وصف الأسد .

وعلى سبيل المثال وصف أبو زبيد أنياب الأسد بقوله : " مشتبك الأنياب " وقال
جميل : " يخاف من أنيابه ويذعر " . وقال الأخطل : " أنيابه في فيه مثل الأنصل " ،
فالأوصاف الثلاثة تدل على هيئة الأنياب المخيفة .

وفي وصف عينية يقول أبو زبيد : " وعينه مثل الشهاب المضرم " ويقول
الأخطل : " وعينه مثل الشهاب المشعل " فالوصفان يدلان على توهج العينين .
ووصفه بالضيغم " اللواسع الشدق " ورد عند أبي زبيد والأخطل . وتشبيه الرأس
بالحجر المستدير الصلب ورد عند أبي زبيد : " وهامة كالحجر الململم " ، وعند
الأخطل " ململم الهامة " ووصف الأسد بـ " قضاقض " ورد عند جميل والأخطل .

وصف الأسد في شعر عروة بن الورد :

ورد في شعر عروة وصف للأسد ، يقول (١) :

| | |
|------------------------------|----------------------------------|
| تبغاتي الأعداء إما إلى دم | وإما عراض الساعطين مصدراً |
| يظلّ الأبناء ساقطاً فوق منته | له العذوة الأولى إذا القرن أضحرا |
| كان خوات الرعد رز زليره | من اللاء يسكن الغريف بغيره |

١ - ديوان عروة ص ٥٥ : ٥٦ العراض : التعريضة . المصدر : العراض الصدر . الأبناء : للقصب .
أصحر : برز إليه ، خوات الرعد : صوته . الرز : للصوت تسدعه من بعيد ولا ترق صاحبه . الغريف :
الشجر الملتف . عثر : أرض قبل تبالة تسكنها الأسود . وتباللة : بلدة من أرض تهامة جنوبي الطائف .

فِيصِفُهُ بِأَنَّهُ عَرِيضُ السَّاعِدِينَ ، عَرِيضُ الصَّدْرِ ، رَابِصٌ فَوْقَ أَجْمَةِ يَتَسَاقَطُ قَصَبُهَا فَوْقَ ظَهْرِهِ ، وَلَكِنْ إِذَا بَدَتْ لَهُ فَرِيسَةٌ ، فَمَا هِيَ إِلَّا وَثْبَةٌ وَاحِدَةٌ لِيَقْتَنَصَهَا ' وَزَيْئِرُهُ يَشْبَهُ صَوْتَ الرَّعْدِ . وَهُوَ يَنْتَمِي لِأَرْضِ قَبْلِ تَبَالَةَ ، تَسْكُنُهَا الْأَسْوَدُ وَتَسْمَى عَثْرًا .

وَهَذَا الْوَصْفُ الْعَابِرُ السَّرِيعُ لِعُرْوَةَ بِنِ الْوَرْدِ ، لَا يَقَارَنُ بِوَصْفِ أَبِي زَبِيدٍ لِلْأَسَدِ ، إِذْ دَقَّقَ أَبُو زَبِيدٍ فِي وَصْفِ أَعْضَائِهِ ، وَدَقَّقَ فِي أَجْزَائِهِ ، وَقَارَنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الصُّورِ الْمَادِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحِيطُ بِهِ ، فَاتَّخَذَ مِنْهَا أَوْجَهَ شَبَهٍ وَضَحَ فِيهَا الصُّورَ ، وَجَسَّدَ الْأَبْعَادَ ، وَلَوَّنَ الزَّوَايَا ، وَمِنْ هُنَا كَانَ مِنْ أَوْصَافِ الشُّعْرَاءِ لِلْأَسَدِ لِأَنَّهُ رَأَى عَنْ قَرَبٍ ، وَتَأَمَّلَ حَرَكَاتِهِ . وَأَدْرَكَ مَا يَصِيبُهُ وَهُوَ يَهْمُّ بِالْهَجُومِ ، وَيَتَرَصَّدُ الْفَرِيسَةَ ، وَأَحْسَ بِزَمْجَرَتِهِ الْمَرْعِيَّةِ ، وَبِرَائَتِهِ الْخَشْنَةَ الْغَلِيظَةَ ، وَمَخَالِبِهِ الْمَعْقُوفَةَ الرَّأْسِ ثُمَّ أَجَادَ تَصْوِيرَ كُلِّ هَذَا فِي شَعْرِهِ ، مِمَّا جَعَلَ وَصْفَهُ أَدَقَّ ، حَتَّى عُدَّ مِنْ أَوَائِلِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ عُنُوا بِوَصْفِ الْأَسَدِ ، وَخَصَّصُوا جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ شَعْرِهِمْ لَهُ .

ثانياً : الرثاء

رثى أبو زبيد الخليفة عثمان بن عفان " رضى الله عنه " ورثى عبيد الله بن عمر بن الخطاب " رضى الله عنه " ، كما رثى ابن اخته اللجلاج فى قصيدة أعجبت القنماء (١). كما رثى صاحباً له علم بموته ، ورثى رجلاً من طيء قتلته أزد عمان . وواضح من رثاء أبى زبيد تأثره بالمعاني الدينية الإسلامية ، التى شاعت فى عصر صدر الإسلام . فهو يذكر آل ثمود وما كانوا عليه من عظمة وحضارة ، يقول فى رثاء اللجلاج (٢) :

من رجال كانوا جبلاً بحوراً فهم اليوم صحب آل ثمود
خان دهر بهم وكانوا هم أهل عظيم الفعّال والتمجيد
ويقول : كان عنى برد درؤك بعد الله شغب المستعصب المرید
ويقول فى رثاء رجل من طيء (٣) : غائباً والمليك ربّ حمسيب
غبت عنه وأنت لم تك عنه

ورثاؤه للخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ، نشعر من خلاله بصنق العاطفة برغم أنه ورد فى عشرة أبيات فقط . فهو يرثى فيه تحمله للأمر الصعبة العظيمة من شئون الدولة الإسلامية ، وكرمه الزائد على الناس ، ورعايته للأيتام والأرامل والمستنين العجزة . يقول (٤) :

- ثمّت زكوا بما علّوا وما حفروا حملاً على الكوم حمل التكليف
- إن كان مأوى وفود الناس راح به رهط إلى جدث كالغار منجوف
- مأوى اليتيم ومساوى كل نهيلة تساوى إلى نهيل كالنسر عنفوف
وأبو زبيد فى رثائه ، يصف القبر وصفاً واقعياً ، فهو فى أرض محفورة بالمسحاة (٥)
ويحيط بجانبه التراب. وقد كانت المساحى تحدث صوتاً بأيدى الحفارين وهم

١ - جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ص ١٢٨

٢ - ديوان أبى زبيد ص ٩٨

٣ - المرجع السابق ص ٨٧

٤ - الديوان ص ١٥١

٥ - المعجزة : المعرفة

يحفرون القبر ، يقول :

على جنبابه من مظلومة قِيمَ
تبادرتها مساح كالمناسيف
لها صواهل في ضم السلام كما
— ضاح القسيات في أيدي الصياريف
كأتهن بأيدي القوم في كبد
طير تكشف عن جون مزاحيف
وهو ياسي أن هالوا للتراب فوق جسد الخليفة عثمان ، وزادوا فوقه تراباً كثيراً ،
يقول :

مقرمدا ما علوا منه بقطرة
زاداً من الزاد غناً غير مظلوف
ثمت زكوا بما علوا وما حفروا
حملاً على الكوم حمل التكاليف
ويتحسر عليه أن حمل القوم جسده الميت ، ودفنوه في قبر محفور عرضاً كأنه
الكهف . يقول :

إن كان مأوى وفود الناس راح به
رَهْطٌ إلى جدث كالغار منجوف
وقد وضعوا فوق قبره الحجارة الضخمة . يقول :

إن كان عثمان أمسى فوقه أمر
كراقب العون فوق القنة الموفى
وكذلك رتاوة للإمام على بن أبي طالب " رضى الله عنه " يبدو فيه التأثير الشديد لهذه
الحادثة . فقد قتل والدولة الإسلامية في أمس الحاجة للرجال المخلصين وبيدأ أبو
زبيد قصيدته بمدح خلقه الكريم ، وبيان نسبه الشريف للرسول " صلى الله عليه
وسلم " ، الذى اختاره الله لهداية هذه الأمة (١) :

إن الكرام على ما كان من خلق
رَهْطٌ امرئ خاره للدين مختار .
ويعتدح فيه بصيرته بنفوس النلس ، وعلمه فى الدين ، الذى تعلمه من رسول الله "
صلى الله عليه وسلم " . ولا يساويه فى علمه هذا عالم آخر .

طب بصير بأضغان الرجال ولم
يعدل بحبر رسول الله أخبار .
ويرجع أبو زبيد وفاته إلى أن وقته حان ، وهذه مشيئة الله فى خلقه ، وقد قدر الله
هذه الوفاة ، بهذه الصورة ، لينخله جناته ، ويدخل قاتله النار . يقول :

وقطرة قطرت إنعان موعدها
وكل شىء له وقت ومقدار
حتى تنصلها فى مسجد طهر
على إمام هدى إن معشر جاروا
حمت لينخل جنات أبو حسن
وأوجبت بعده للقاتل النار .

١ - ديوان أبى زبيد ص ١١١

وفى رثاء ابن اخته اللجلاج يتحسر عليه أن أهيل عليه حمل ثقيل من التراب ،
ووضعت فوق القبر صخرة عظيمة . يقول :

ففى ضريح عليه عباء ثقيل
من تراب وجندل منضود
وهو فى رثائه لابن اخته اللجلاج يشعرنا بالحسرة الشديدة والحرقة البالغة فى قلبه
عليه ، لما بينهما من صلة رحم . يقول (١) :

من حميم ينسى الحياء جليد القو
م حتى تراه كالمبلود
كل ميت قد اغتفرت فلا أو
جع من والد ومن مولود
غير أن اللجلاج هد جناحي
يوم فارقته بأعلى الصعيد
ويقول :

يا ابن حسناء شق نفسى بالجد
لاج خليتسى لدهر شديد
ويقول :

إن تفتى فلم أطب عنك نفساً
غير أنسى أمنى بدهر كنود
ويأسى عليه لأنه مات عطشاً بعد إصابته بحر العطش . يقول :

عن يمين الطريق عند صدق حر
أن يدعو بالليل غير معود
صادياً يستغيث غير مغاث
ولقد كان عصرة المنجود
ويعد مآثره وكأنه ينوح عليه . فقد كان ملجأً للمكروبين . يقول :

من يرئنى بسىء كنت منه
كالشجا بين حلقه والوريد
وقد كان يعلل شجاعة ، ولكنه يفوقه فى طول القامة ، وكان يقلب خصمه عنوة ،
يقول : أسد غير حيدر ومثلث
يطلق الخصم عنوة فى كؤود
وكان خطيباً مفوهاً فى المناظرات ، إذا عجز الخصوم . قال :

وخطيب إذا تمعرت الأو
جبه يوماً فى مايط مشهود
وقد كان جواداً ، كريماً وأفر العطاء ، وإن بخل اللئماء . قال :

ومطير اليبين بالخير للحمد إذا
صن كل جيس صلود
ولشدة كرمه كان يترك ناره مشتعلة بالليل ، وعليها القدر ممتلئة بالطعام ، لإحرام
الضيوف . قال :

معمل القير نابه النار بالليل
إذا هم بعضهم بخمود

وقد كان يتسم بالبياض ، والإشراق ، واستدارة الوجه ، كأنه البدر . وكانت العيون تتطلع إليه لجماله . بقول :

أصلتى تَسْمُو العُيُونَ إليه
مُسْتَتِيرٌ كالبَدْرِ عامَ العُهودِ
وكان يتولى أمر ضعاف القوم ، ويقضى حوائجهم ، ويسير الليل كله مستقيماً ، قال :
ناطَ أمر الضَّعافِ واجتعلَّ اللَّيْلُ
ل كحبل العاديَّة الممدود .

ثالثاً : المدح

لم يشغل المدح حيزاً كبيراً في ديوان أبي زيد ، إذ لم يجد التملق سبيلاً إلى الشاعر ، ولذلك فقد استعمله الخليفة عمر بن الخطاب " رضى الله عنه " على صدقات قومه ، وأبنى مجلسه عثمان بن عفان " رضى الله عنه " ، وصاحبه الوليد بن عقبة مصاحبة طويلة . وقد كانت أغراضه الشعرية أغراضاً خاصة ، لارتمت حياته ، جاشت في نفسه ، فأثارت فيها نواعج ومشاعر وأحاسيس . عبر عنها بهذه القصائد ، ولونها بعواطفه التي طبعت هذه المشاعر والأحاسيس .
وقد مدح الإمام علياً بقصيدة ، كما مدح الوليد بن عقبة بأربعة نصوص ، وله نص واحد في مدح أبي وهب .

وهو في مدحه الإمام علياً يمدحه بصفات تليق بإمام المستميرين كالعلم ، والتدين ، والشجاعة ، والفروسية ، بقول (١) :

إن علياً ساد بالتكْرَمِ
هداه ربى للضَّرَاطِ الأَقْوَمِ
كالليث عند النَّبْواتِ الضَّيْفِمْ
فهو يَحامى غيرةً ويَحْتَمى
ويقول :

وكهمن الليل مصك ملنم

ليث الليوث في الصَّدامِ مصنم

١ - المرجع السابق ص ٦٦٦

ويمتدح صفاته الجسدية المميزة له ، فهو ممتلىء للذراعين " عبل الذراعين " وهو ضخم الجسم " نَهْد " ، وهو أبيض الوجه " ذو جبهة غرّاً " ، وأنفه ممتلىء " وأنف أختم " . وأما مدح الوليد بن عقبة ، فقد وردت فيه معظم مدائح أبي زييد ، لما عُرِفَ عنهما من صداقة ومنادمة استمرت حتى الموت .

من أشهر مدائحه فيه قصيدته التي قالها بعد أن ذُكِرَ لعثمان بن عفان " رضى الله عنه " أن الوليد يشرب الخمر ، وينادم أبا زييد ، فعزله عن الكوفة ، وحدّه فى الخمر . وفى القصيدة نشعر بصدق أبي زييد فى حديثه عن الوليد ، فمن بداية القصيدة يتحسر أبو زييد على ارتحال الوليد بن أروى " وهى أمه وأم عثمان بن عفان " بأحماله وأثقاله مكرهاً عن الكوفة ، والحداة يحثون الإبل على السرعة فى المسير لايتأثون . والإبل تتجه من الكوفة إلى المدينة تاركة بيت الوليد وكنيته " أبو وهب " المتسح ، الذى ابتناه إلى جوار المسجد خلاء تدوى فيه أصوات الرياح .
يقول (١) :

من يرى العير لابن أروى على ظه
فصعدات والبيت بيت أبي وهب
خلاء تحن فيه الشمال
ويدافع عنه فى التهمة المنسوبة إليه ، وهى شربه الخمر ، فيذكر أنه لا يشرب الحرام وإنما شربه حلال طيب . يقول :

فلوهم شريك الحرام وقد كا
ن شراباً سوى الحرام حلال
ويعرض أبو زييد بمسعيد بن العاصى ، الذى ولى الكوفة ، حين عزل عثمان الوليد بن عقبة وكان مسعيد بن العاصى هو الذى تولى جلد الوليد بن عقبة ، بأمر عثمان رضى الله عنه ، فيما اتهم به من شرب الخمر . يقول :

وأبى الظاهر العداوة إلا
من رجالٍ تقارضوا منكرات
شناناً وقولاً مالا يقال
ليناألوا الذى أرادوا فمالوا
غير ما طابيبين تحلاً ولكن
مالاً دهر على أناس فمالوا
ويعلم مناصرتة للوليد طوال حياته ، بماله ، وبلساته ، وببيديه . يقول :

من يخنك الصفاء أو يتبدل
أو يزل مثلما تزول الظلال

فاعلمن أنني أخوك أخو الودِّ حياتي حتى تزول الجبالُ
ليس بخلٌ عليك عندي بمالٍ أبداً ما أقلّ نعلًا قبالي
ولك النصر باللسان وبالكم - فإذا كان لليسين مصال -

وفى نص آخر يعلن أنه يدين للوليد باللود الخالص ، ونصحه الصريح ، فقد نصره على مري بن أوس بن حارثة ، وكانوا قد أخذوا منه إيلاً فاقتلعا منهاهم الوليد .
يقول :

يألت شعري بأبئاء أنبؤها قد كان يعيا بها صئري وتقيري
عن امرئ ما يزيده الله من شرفٍ أقرح به ومري غير مسرور
إن للوليد له عندي وحق له ود الخليل ونصح غير منخور
وهو يعترف بما للوليد من فضل عليه ، إذ رعاه ، وقربه إليه ، ونصره على أعدائه .
- ولم يقصر في ذلك ، فنفخ عنه أذى القوم ، حتى ابتعدوا بشرهم عنه مضطرين متصاغرين ، غير مكترث بعاقبة ذلك . يقول :

إن امرأ خصني عمداً مونتته على التئاسي لعندي غير مكفور
لقد رعائي وأنائي وأظهرني على الأعداي بنصر غير تعذير
فشذب القوم عنّي غير مكترثٍ حتى تناهوا على رغم وتصغير
وهو يعلن حبه له فهو مستعد أن يفتديه بنفسه ، يقول :

نفسى فدأء أبى وهب وقل له يا أمّ عمرو فحلى اليوم أو سيري
وفى نص آخر يمتدح ما يتسم به الوليد من كرم وسماحة نفس ، وخصال طيبة ، وطبيعة حسنة مرغوبة ، يقول (١) :

كم عندّه من نائلٍ وسماحةٍ وشمائل ميمونةٍ وخلّاق
وفى نص آخر يقسم أنه إن كان يبيت ببدة لا يبيت فيها الوليد ، فحاله كحال الأعر ، الذي يواجه الدنيا بعين واحدة ، يقول (٢) :

لعمري لئن أمسى الوليد ببدةٍ سواي لقد أمسىت للدهر معورا
ويعلن أنه يلتصم قربه ، وإن نأى عنه ، حتى لو استغرق السفر إليه شهوراً طويلة .
يقول :

١ - الديوان ص ٦٥٤

٢ - ص ٦١٧

رابعاً : الهجاء

شعره فى الهجاء ينحصر فى خمسة نصوص ، أشهرها ما قاله فى واقعة ضربة المكاء (١) . إذ ورد أن رجلاً من طيء من بنى حية ، نزل به رجل من بنى الحارث بن ذهل بن شيبان ، يقال له المكاء ، فنبح له شاة وسقاه من الخمر ، فلما سكر الطائى ، قال : هَلُمَّ أفاخرِك : أهنو حية أكرم أم بنو شيبان ؟ فقال له الشيبائى : حديث حسن ومنازمة كريمة ، أحب إلينا من المفاخرة . فقال الطائى : والله ما مدَّ رجل قط يداً أطول من يدي ! فقال الشيبائى : والله لئن أعدتها لأخضبتها من كوعها . فرفع الطائى يده ، فخضبها من كوعها . فقال أبو زبيد قصيدته ومطلعها :

خبرتنا الركبانُ أن قد فخرتم
وفرحتم بضربة المكاء (٢)

وفىها يهجو الشيبائى القاتل كما يهجو قومه ، وهو يعيرهم بأن الناس تناقلوا خبر هذه الفكرة منهم التى صارت عاراً عليهم ، فقد ظل أخوهم الشيبائى ضيفاً على الطائى يتمتعان بشرب الخمر غدوة ، وأكل اللحم المشوى ، ثم لما نظر الشيبائى فوجد الطائى قد لعبت الخمر برأسه وغلبت على عقله ، ولا يمكنه دفع الخطر عن نفسه ، لم يعمل حساباً لحرمة النديم ، وهى حرمة واجبة الرعاية على أهل الوفاء والكرم ، وأقم على فعلته القبيحة . ويلجأ أبو زبيد إلى استخدام النداء لقومه كى يتعجبوا من هذه الفعلة للركاء . يقول :

خبرتنا الركبانُ أن قد فخرتم
ولعترى لعارها كان أنسى
ظل ضيفاً لأخوكم لأخينا
ثم لما رآه راتت به الخمر
لم يهَبْ حرمة النديم وحقت
وفرحتم بضربة المكاء
لكم من تقى وحق وفاء
فى صبوح ونعجا وشواء
وأن لا يريبك باتقاء
يالقومى للمنواة السواء

١ - الألفية ج ١٢ ص ١٢٢ - طبقات فحول لشعراء ص ١٠٣ .

٢ - اللهران ص ٥٨١ .

ويلجأ أبو زبيد في هذه القصيدة إلى الفخر القبلي ، وبيان منزلة قبيلته بين القبائل ، وهو ينقل إليهم الأخبار القاطعة ، فكم من قبيلة تعرضنا لسفاهتها ثم أعرضنا عنها ، وكم من معشر قاتلونا فأزالتهم رماحنا قتلى ، وقد بدأوا هم بحرنا وكانوا يعيشون حياة الرخاء ، وبعد أن تهبأوا للقتال وتناولوا بإشعال نار الحرب واصطلوا بحر نارها ، طلبوا منا الصلح . لأنهم وجدونا أهل بأس ، صانقي الطعن في المعركة ، يقول:

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| فاصدقوني وقد خبرتم وقد ثا | بت إليكم جوائب الأبناء |
| هل علمتم من معشر سافهونا | ثم عاشوا صفحاً ذوى غلواء |
| كم أزلت رماحنا من قتيل | قاتلونا بنكبة وشقاء |
| بعثوا حربنا إليهم وكانوا | فى مقام لو أبصروا ورخاء |
| ثم لما تشدّرت وأنافت | وتصلّوا منها كربة الصلاء |
| طلبوا صلحنا ولات أوان | فأجبننا أن ليس حين بقاء |
| ولعمري لقد لقوا أهل يأسى | يصدقون الطعان عند اللقاء |

وهو يستهزئ بقوم الشيباني ، ففعلتهم القبيحة لا تصدر من سادة الناس ، وإنما رعاهم . يقول :

| | |
|-------------------------|-----------------------|
| فاصدقوني أسوقاً أم ملوك | أنتم والملوك أهل علاء |
|-------------------------|-----------------------|

وفى نهاية القصيدة يفخر أبو زبيد بشمائل قومه ، من تصبر وتعزى عند المصيبة ، وعدم الاستسلام للحزن ، وقد اشتهروا بالعزة والسيادة . ومجدهم يقوق كل مجد سواهم . يقول :

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| إننا معشر شمائلنا الصبر ود | فمع الأسى بحسن العزاء |
| ولنا فوق كل مجد لواء | فاضل فى التمام كل لواء . |

ولأبى زبيد قصيدة قالها فى أجيره الذى حارب مع بهراء ضد تغلب (وهم أخوال أبى زبيد) قال ابن الكلبي فى خبره الذى ذكره اسحق عنه (١) : " هرب أبو زبيد من الإسلام ، فجلور بهراء ، فاستأجر منهم أجيراً لإبله ، فكان يقبله حلب الجمان والقيس ، وهما ناقتان كانتا له ، فلما كان يوم حابس ، وهو اليوم الذى لتقت فيه

بهراء وتغلب ، خرج أجير أبي زبيد مع بهراء ، فقتل وأنهزمت بهراء ، فمّر أبو زبيد به وهو يوجد بنفسه ، فقال فيه هذه القصيدة .

ورود (١) أن . "أبا زبيد ، وكان في أخواله بنى تغلب ، وكان يقيم فيهم أكثر أيامه وكان له غلام يرعى إبله ، وأن بهراء غزت بنى تغلب ، فمروا بغلامه ، فنفع إليهم الإبل ، وقال : انطلقوا أنكم على عورة القوم وأقاتل معكم . فصحبهم ، فالتقوا فهزمت تغلب بهراء ، وقتل العبد ، فقال أبو زبيد في ذلك "

وأبو زبيد يبدأ قصيدته بهجاء أجيره ، فيصيره بأنه عبد لا علم له بالحرب ، وليس من فرساتها ، ويلومه أن سعى إلى هؤلاء الشياطين من بنى تغلب ، مستعجلاً تاركاً ماكلف به هذا العبد من حلب الإبل ورعايتها . يقول (٢) :

هَلْ كُنْتَ فِي مَنْظَرٍ وَمُسْتَمَعٍ عَنِ نَصْرِ بَهْرَاءَ غَيْرِ ذِي فَرَسٍ
تَسْعَى إِلَى فِتْيَةِ الْأُرَاقِمِ وَأَسْرِ تَتَعَجَّلُ الْجَمَانِ وَالْقَبَسِ
ويسخر أبو زبيد من هذا الأجير ، الذي سعى إلى لقاء تغلب ، وقد ظنهم طعاماً لذيذاً سائغاً قريب المتناول ، يقول :

مُنْتَهِزاً مِنْ لَقْوَا ، حَسِبْتَهُمْ أَحْلَى وَأَشْهَى مِنْ بَارِدِ النَّبَسِ
ويوقل أبو زبيد لأجيره : كيف تفعل هذا ، ولا تأر لك عندهم ، ولا لأحد فيهم مطمع من عزهم ، فكيف اجترأت عليهم ، أيها العبد ؟ يقول :

لَا يَرَّةَ عِنْدَهُمْ فَتَطْلُبُهَا وَلَا هُمْ نَهْرَةَ لِمَخْتَلِسِ
ويمدح بنى تغلب أخواله ، فيصفهم بالسخاء ، وسرعة بذل المال ، وهم لا يضجرون من مسى الحرب ولا يهابونها ، ولا يقعدون عنها يقول :

جَوْدَ كَرَامٍ ، إِذَا هُمْ نَدَبُوا غَيْرَ لِإِسَامِ ضَجْرٍ وَلَا كُبَسِ
كما يصفهم بالرزاقية في نأبيهم ، لا يتكلمون ، فإذا تكلموا أبانوا عن أنفسهم ، يقول :
صَمَّتْ عِظَامُ الْحُلُومِ إِنْ قَعُوا مِنْ غَيْرِ عِيٍّ بِهِمْ وَلَا خَرَسِ
وينكر إعدادهم خيلهم وجمالهم ، لحرب عندهم ، ليصبحوه مع الفجر . يقول :
تَقَوْتُ أفراسَهُمْ نَسَاؤُهُمْ يَزْجُونَ لِجَمَالِهِمْ مَعَ الْغَلَسِ

١ - الأغاني ج١٢ ص١٣٥ ، الشعر والشعراء ص٣٠٧ ، طبقات فحول الشعراء ص٦٠٦

٢ - ديوان أبي زبيد ص٦٣٦

ويذكر التغلبي الذي قتل أجيره ، ويصف التغلبي إذ عيس لما رآه ، غضبا وحميةً
وشبهه بالأسد بأساً ونكايةً :

صَانَفَتْ ، لما خرجت منطلقاً
جَهَمَ الْمُحِيَا كِبَايِبِلِ شَرِسِ
ويصف نصل رمحه بشدة لألانة ، وتوقده :

فَجَالَ ، فى كَفِّهِ مُتَّقَفَةً
تَلَمَعُ فِيهَا كَشْعَلَةَ الْقَبَسِ
ثم يصفه بأنه لا يكاد يبلغ ثأراً ، حتى يطلب ثأراً آخر مرة بعد مرة ، لكثرة قتاله
وقتل قومه ، لا تنتهى نحولهم وأوتارهم ، فهو أبداً منغمس فى غمار الموت :

بَكَيْفِ حَرَانِ ، ثَائِرِ بَيْتِمِ ،
طَلَابِ وَتَرِ ، فى الموت مُنْقَمِسِ .
ويتهزأ ويسخر بأجيره فيقول : إن تك قتلت فى حرب ، فإبتك لست من أهل الحرب
حتى أبكى عليك بكاء الذين يقتلون فى الحروب ، ولا أبكيك لشيء إلا للدلو والمرس
، إذ كنت حانقاً بالاستقاء من الآبار ، ما إليها من عمل العبيد والأجراء :

إِذَا تَقَارَشَ بِكَ الرَّمَاحُ ، فَلَا
أُبْكِيكَ إِلَّا لِلدَّلْوِ وَالْمَرَسِ .
ويستمر فى السخرية به ، فيذكر أنه راض عما اختاره لأجيره ، حين جعله يغفو على
ناقته يحلبها . أما الأجير فقد لام نفسه ، ونم ما اختاره لنفسه ، من خوض المهالك
فطعن فى ثغرة نحره وهلك :

حَمَيْتَ أَمْرِي ، وَلَمَتَّ أَمْرَكَ إِذْ
أَمْسَكَ جَلَزُ السِّنَانِ بِالنَّفْسِ
ويستمر أبو زيد يهزأ به ، ويسخر . فيقول : تعرضت لهذه النار الجامحة من الحرب
تحسبها نعمة ومتاعاً ، كما يتعرض المقرور للنار الموقدة ، يصطلى ويستشفى
ويستمتع ، فكان ما علمت من المكاره :

وَقَدْ تَصَلَّيْتَ حَرَّ نَارِهِمْ ،
كَمَا تَصَلَّى الْمَقْرُورُ مِنْ قَرَسِ
وفى نهاية قصيدته يذكر حاله وهو يصارع الموت . فلم يكن يملك أن يحرك شيئاً من
بنه ، إلا كفه . وقد أقبلت عليه النسور ، واستدارت حوله ، وأقامت فى مكاتها
ناظرة إليه ، تترقبه حتى يهلك فتأكله ويشبه الشاعر اجتماع النسور حوله بالزائرات
فى العرس ، وقد نبتن البياض ، وأخذن زينتهن وتجمعن ينتظرن الوليمة :

تَنَبَّ عَنْهُ كَفَّ بِهَا رَمَقٌ
طَيْرًا عَطُوفًا كَزُورِ الْعُرْسِ

وبعد قليل قضى نحبه ، فدفنت إليه النسور ثم علت جثته ، ثم أقبلت تنهشه ، فمنها ما يضرب بمنقاره في اللحم ولم ينتزعه بعد ، ومنها ما هو قد نهش اللحم وأخذ بأفله :

هَذَا قَلِيلٌ عَلَوْنَ جُثَّتَهُ فَهَنَّ مِنْ وَالِغٍ وَمُنْتَهَسِي
 وَاللَّيْ زَبِيدٌ أَبْيَاتٌ فِي هَجَاءِ ضَبِيْعِهِ ، وَفِيهَا أَيْضاً يَسْخَرُ مِنْ هَذِهِ الْعَشِيْرَةِ ، وَيَبِيْنُ أَنَّهَا
 لَمْ تَكُنْ بِذَاتِ شَأْنٍ ، وَأَنَّهَا تَنْتَمِي بِأَصُولِهَا لِعَبْدٍ ضَمَمْتَهُ طِيءَ إِلَيْهَا (١) :
 كَلَّا زَعَى ضَبِيْعَةُ أَمْرَ قَوْمِي وَمَا كَانَتْ ضَبِيْعَةً لِلْأُمُورِ
 وَلَوْلَا كَانَتْ ضَبِيْعَةً غَيْرَ عَبْدٍ ضَمَمْنَاةً إِلَى نَسَبِ شَطِيْرٍ

وله ثلاثة أبيات في هجاء من منعه صلته ، وهو يعتب عليه أن حلف ألا يبهره ، أو يخطيه أبداً ، وهو يسخر منه في البيت الأخير ، فيدعوه أن يترك له رزقه ، في الظري حية رصيد وهي التي ترصد المارة على الطريق لتلتسع ، يقول (٢) :

إِلَيْكَ أَتَيْتَنِي بِوَأَحِدَةٍ تَجْعَلُهَا مِنْكَ آخِرَ الْأَيْدِ
 الْحَلِيفُ أَلَا تَبْرُنِي أَبَدًا فَإِنَّ فِيهَا بَرْدًا عَلَى كَبْدِي
 إِنْ كَانَ يَرْزُقِي إِيَّاكَ فَارْزُمْ بِهِ فِي نَاطِرِي حِيَةً عَلَى رَصْدِي

١ - الديوان ص ٦٢٩

٢ - المرجع السابق ص ٦٠٥

اللغة والصورة في شعر أبي زيد

أولاً : لغته

نلاحظ عند قراءة شعر أبي زيد ، ظاهرة استخدامه لألفاظ غريبة ، تصعب كثير من معانيها على القارئ ، فيضطر لاستخدام المعجم ، وتتركز هذه الظاهرة في الألفاظ الخاصة بوصف الأسد ، ولا نجد لهذه الغرابة أثراً يذكر في مدحه ، أو رثائه ، أو هجائه ، إذ يبدو أن ما يتصل بالأسد من وحشية وعنف يناسبه ألفاظ الغريب ونلاحظ أن الشاعر لا يكتفى بألفاظ غريبة بعينها في وصف الأسد ، بل يحشدها في القصيدة في عبارات متتابعة يصعب متابعتها ، إلا بكثير من الجهد والتنقيب عن دلالات الألفاظ . فمما ورد في وصفه للأسد قوله (١) :

عَبُوسٌ لَهُ خَلْقٌ غَلِيظٌ غَضَنْفَرُ
عَفْرَنَى مَذَاكِي الْأَسَدِ مِنْهُ تَحْجَرُ
وَكَنْفَانِ كَالشَّرْخِيَيْنِ عِبِلٌ مُضَبَّرُ
مَغَارِهِنَّامِ عَدْمَلَى مِنْهُورِ
وَيَحْبِقُ مِنْهُ الْأَحْمَرِيُّ الْمُدَوَّرِ

فَلَا يَعْلَقُكُمْ مَهْصَرُ النَّابِ عَنَبَسٌ
مُبِينٌ يَأْعَلِي خَلَّ رَمَانٍ مُخِيرُ
لَهُ زَيْرٌ كَاللَّبِيدِ طَارَتْ رَعَابِلًا
كَأَنَّ غَضُونًا مِنْ لِهَاءِ وَحَلْقِهِ
يُعْرَدُ مِنْهُ ذُو الْحَفَازِ مَلْحَجًا
وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُهُ (٢) :

فِي قَرْطَفٍ مِنْ نَسِيلِ النَّجْتِ مَخْذُورِ
رَخْوِ الْمَلَاظِ غَيْبِيًّا فَوْقَ صَرَصُورِ
قَيْضًا اقْتِيَاضًا بِأَطْرَافِ الْمَنَاقِيرِ
وَعَسَى السَّوَاعِدِ مِنْهُ بَعْدَ تَكْسِيرِ
وَفِي الْبَيْتِ التَّالِي نَلَاظُهُ أَنَّهُ فِي شَطْرِ وَاحِدٍ ، يَحْشُدُ أَلْفَاظًا غَرِيبَةً مَتَابَعَةً فِي وَصْفِهِ

وَرَدَ كَأَنَّ عَلَى ائْتِدَادِهِ حَرَجًا
أَوْ ذَا شَصَابِ فِي لِحْنَالِهِ شَمَمِ
كَأَنَّ عَيْنِيهِ فِي وَقَبَيْنِ مِنْ حَجَرِ
إِذَا تَبَهَّتْ بِمَشْيِ خِلْتَهُ وَغِثًا
لِلْأَسَدِ يَقُولُ :

جَرِيءٌ عَلَى الْأَقْرَانِ لِلْقَرْنِ قَاهِرُ

عَبُوسٌ شَمُوسٌ مُصَلِّدٌ مُكَابِرُ

١ - اللديوان ص ٦٠٦

٢ - المرجع السابق ص ٦٢٢

والفاظ الغريب لدى شاعرنا فرضها عليه الغرض الشعري ، فالوحشية التي تتصل بوصف الأسد ، وما يتصل بها من خشونة ، قد فرضا على الشاعر استخدام هذا النوع من الألفاظ . يقول عنه صاحب الخزانة (١) : " وكان مغرئاً بوصف الأسد بعبارة مهولة تزعج السامع ، حتى كأنه يشاهد الأسد في حضوره " .

ويعرف السيوطي الغريب فيقول (٢) : " والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفتها إلى أن ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة . فينبغي أن نلاحظ أن للغرابة هنا مدلولاً خاصاً ، بمعنى أن تكون اللفظة غريبة على العرب الفصحاء . لا بالنسبة لاستعمال الناس عامة " .

وأورد ياقوت الحموي (٣) رواية على لسان الأصمعي ، قال : قال الأصمعي : "جئت إلى أبي عمرو بن العلاء فقال : من أين جئت يا أصمعي ، قلت : من المرير ، قال : هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت في ألواحى ، ومرت به ستة أحرف لم يعرفها فأخذ يعدو في الدرج قائلاً : شمّرت في الغريب يا أصمعي " .

وأبو زيد لا يقتصر في استخدام هذه الألفاظ الغريبة في وصف الأسد شعراً فحسب ، بل لقد استخدمها في وصفه النثرى للأسد ، في مجلس عثمان بن عفان رضى الله عنه . وبدأ هذا للوصف بوصف جو الصحراء ، وهذا يؤكد أن الغرض الشعري هو الذى فرض عليه استخدام هذا النوع من الألفاظ .

ويظهر في لفظ ابن زبيد وفي معاني الأثر الإسلامى واضحاً ، ومن المعروف أن الحياة الدينية وخاصة في بدايات الدعوة الإسلامية ، كانت عاملاً مؤثراً كبيراً في الشعر ، ويعد تأثر أبى زيد بهذه الحياة الدينية ، صورة لتأثر المجتمع الأئبى في ذلك العصر بهذه الحياة الدينية . فكثير من العناصر الإسلامية التي نجدها

١ - خزنة الأئب ، عبد القادر البغدادي ج٤ ص١٩٢

٢ - المنزه للسيوطي ج١ ص١٨٥

٣ - معجم الأئب ج٢ ص٢٢

فى شعر أبى زبيد ، نجدها أيضاً فى شعر غيره من المعاصرين له ، مع تفاوت طبيعى بينهم فى مدى الاستجابة لهذه الحياة الدينية .

وقد ظهر هذا التأثير فى الشعر ، فنجد أبى زبيد فى معانيه وألفاظه متأثراً بالروح الإسلامية ويستخدم إلى حد ما الألفاظ الإسلامية التى كان يتدولها الشعراء المسلمون فى تلك الفترة . ويعد رثاؤه لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولعثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ولعبيد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، خير دليل على هذا الأثر الإسلامى فى شعره . فهو يذكر آل ثمود فى قوله :

من رجالهم كانوا جبلاً بحوراً
ويذكر أن الملك رب حسيب ، يقول :

فهم اليوم صعب آل ثمود (١)
غبت عنه وأنت لم تك عنه
ويقول حير رسول الله :

يعدل بحبر رسول الله أخباراً (٢)
طب بصير بأضغان الرجال ولم
ورهب رسول الله :

إن الكرام على ما كان من خلق
ويذكر هداية الله للصرائط الأقوم ، والحلال والحرام ، يقول :

رهب امرئ خاره للنين مختاراً (٣)
هداه ربى للصرائط الأقوم
ويذكر ضلالة تأميل نيل الخلود

بأخذه الحبل وترك المحرم (٥)
وإن طول الحياة غير سعاد
ورد الدرأ بعد الله :

وضلال تأميل نيل الخلود (٦)
كان غنى يرد بروك بعد
لله شغب المستصعب المرید (٧)

١ - ديوان أبى زبيد ص ٥٩٨

٢ - المرجع السابق ص ٥٨٧

٣ - المرجع نفسه ص ٦١٢

٤ - ص ٦١١

٥ - ص ٦٦٢

٦ - ص ٥٩٢

٧ - ص ٦٠٠

- ويقول بحمد الله :
- بحمد الله ثم فتى قريش
 ويذكر الجنة والنار :
- أبى وهب غدت بطناً غزارا (١)
 حمت ليلخل جنات أبو حسن
 وأوجبت بعده للقاتل النار (٢)
 وطهارة المسجد ، وإمامة على للمسلمين :
- على إمام هدى إن معشر جازوا
 حتى تنصلها في مسجد طهر
 ويقول يزده الله شرفا :
- أفرح به ومرى غير مسرور (٣)
 عن أمير مما يزده الله من شرف
 ويذكر إيمانه بالقضاء والقدر :
- وكل شيء له وقت ومقدار (٤)
 وقطرة قطرت إذ حان موعدها
 وهو يدفع الأذى بحسن العزاء . يقول :
- غير أنى أمنى بدهر كنود (٥)
 إن تفتى فلم أطب عنك نفساً

صوره الشعرية

كان الخيال يشغل جانباً مهماً من جوانب شعر أبى زبيد ، وخاصة في أوصافه . وكان لهُو زبيد يركز على التشبيه في الصور الجزئية ، التي يأتي بها ليعبر عن معنى معين ، وهو يستعين بالتشبيه لنقل إحياءاته وعاطفته . وجدير بالذكر أن الأشياء التي ركز عليها في تشبيهاته ، كانت قوية العلاقة ببيئته وتجمعته ونفسه . فمن صورته الشعرية في وصف الأسد : " بسمر كالمحاجن في قنوب (١) " يصف برائن الأسد انسواء في محاجنها ، ويشبهها بالعصا المعقفة الرأس المعوجة . ويقول :

١ - ص ٦٢٠

٢ - ص ٦١٢

٣ ديوان أبى زبيد ص ٦٢١

٤ - المرجع السابق ص ٦١٢

٥ - ص ٦٠٥

٦ - ص ٦٠١ قيب الأسد هو النظام الذي يدخل فيه مخالبه ليسترها ، بسمر : يعنى مخالبه ، للمحاجن : جمع بحجن : وهو العصا المعقفة الرأس المعوجة . ومخالب الأسد حجن معقفة .

كان بنحره ويساعديه عيراً بات تعبؤه عروس (١)
 يصف الأسد ، وعليه الدماء حول نحره وعلى ساعديه من أثر فتكه بالفريسة فيشبه
 هذه الدماء بالعبير ، الذي تصنعه وتخلطه العروس ، ويقصد بالعبير اخلاط الطيب
 التي تجمع بالزعفران ، وفيه لون حمرة يشبه الدم . ويقول :
 كأن أثواب نقاد قدرن له يعلو بخماتها كهباء هدايا (٢)

فيشبهه جلد الأسد ، وشعره المتدلى ، بالقطيفة التي يرتديها الراعي . ويقول :
 " له زير كاللبد طارت رعابلاً " (٣) فيشبه شعر الأسد ، الذي يعلو كامله بالثياب
 الممزقة . ويقول :

ورد كأن على أكتاده حرجا في قرطف من نسيل النجت مخدور (٤)

فيشبه ما على كتفه من الشعر بالهودج المغطى بالقطيفة .
 ويشبه برائن الأسد بالخطاطيف ، ومفردها خطاف وهو حديدة حجناء ، يختطف بها ،
 مشبهاً بالحديدة لحجنتها : يقول : " إذا عَاقَت قَرْنًا خَطَاطِيفُ كَفِّهِ " (٥)

ويشبه ما تغضن من جلد الأسد ، فوق حلقة ولهاه بمغار الرمل ، المتناثر الواسع
 يقول (٦) :

كان غضوناً من لهاه وحاقه مغار هيام عَمَلَى منهور
 ويشبه شعر الأسد الكثيف الذي يجلل جسده ، بمن لبس برنساء يغطي جسمه كله .
 يقول (٧) :

١ - ص ٦٠٣
 ٢ - الديوان ص ٥٩٠ ، نقاد : صاحب النقد وهي القنم للصغار ، قنرن له : طبعن عليه وجعلن على قدر
 جسمه ، كهباء : التي تضرب إلى الغبرة .
 ٣ - ص ٦٠٧ ، الزيرة : الشعر المجتمع للأسد ، الرعايل : المتقطع .
 ٤ - الديوان ص ٦٢٣ ، أكتاده : مفرز العنق في الكاهل . الحرج : الهودج
 ٥ - ص ٦١٩
 ٦ - ص ٦٠٧ ، الغضون : ما تغضن بعضه على بعض من الجلد الذي فوق حلقة ولهاه ، الهيام : الرمل
 المتناثر ، العملَى : القنيم ، المنهور : الواسع أو المتهدم .
 ٧ - ص ٦٤٣

ضرغامة أهرت الشدقين ذى لبيد
ويشبه عيني الأسد بفتحيتين فى صخرة صلبة ، هى رأسه . ويشبه منظرها فى
توهجها بالجمرتين . يقول (١) :
وعينان كالتوقيين فى قبيل صخرة
يرى فيهما كالجمرتين التبصر

ويشبه توهج عينيه فى الظلام ، بالنيران المشتعلة . يقول (٢) :
" وعيناه فى النجى كجمر الغضا "
كما يشبه عينيه الحادتين ، ورأسه الصلب بنقرتين فى صخرة . وقد حفرتا بفأس
حديدية . يقول (٣) :
كأن عينيه فى وقين من حجر
قيضا اقتياضاً بأطراف المناقير

ويشبه صوت الأسد المدوى بالرعد . يقول (٤) : كأن اهترام الرعد خالط جوقه "
ويشبه صوت زئير الأسد بما فيه من حشرجة بالصوت الصادر من جوف رجل
مريض بصدرة (٥) . يقول :

للصدر منه عويل فيه حشرجه
كأنما هى فى أحشاء مصدور
ويشبه أنياب الأسد الحداد ، إذا قلص عنها أشداقه بالخناجر . يقول (٦) :
بديل بأنياب حداد كأنها
إذا قلص الأشداق عنها خناجر
ويشبه مشية الأسد بمن يمشى فى مكان تكثر فيه الرمال ، وقد كسر سواعده ثم
جبرتا ، فهذه المشية تشبه بها مشية الأسد وهو يتختر . يقول (٧) :
إذا تبهنس يمشى خلته وعشا
وعسى السواعد منه بعد تكسير

١ - ص ٦٠٨

٢ - ديوان أبى زيد ص ٦١٣

٣ - المرجع السابق ص ٦٢٣

٤ - ص ٦٠٨

٥ - ص ٦٢٥

٦ - ص ٦١٣

٧ - ص ٦٢٣

ويشبه نصل الرمح ، فى شدة تَلَأُوهُ وتوقده بشعلة النار . يقول (١) :
فَجَال ، فى كَفِّهِ مُنْقَفَةٌ تَلَمَّعُ فِيهَا كَشُعْلَةُ الْقَبَسِ

ويشبه النسور الجارحة التى تلتف حول الصريع ، ناظرة إليه تترقب هلاكه ، وهو
يصارع الموت ، بالنساء الزائرات فى العرس وقد لبسن البياض وأخذن زينتهن ،
وتجمعن ينتظرن الوليمة ، يقول (٢) :

تَدَبَّ عَنْهُ كَفًّا بِهَا رَمَقٌ طَيْرًا عُكُوفًا كَزُورِ الْعُرْسِ
وهو يجعل الصدى والجبوب من أقارب الميت . يقول (٣) :
من دم ضائع تغيب عنه أقربوه إلا الصدى والجبوب

وهو يصف الكريم بأنه مطير اليمين بالخير . يقول (٤) :
ومطير اليمين بالخير للحمد إذا ضنَّ كلَّ جيس صائدود

ويشبه نفسه بالأسد ، كى يرهب أعداءه فى هذا البيت (٥) :
ولكنى ضيارمة جموح على الأقران مجترىء خبوس
وهو فى رثاء عثمان رضى الله عنه ، يشبه أصوات المساحى " وهى التى يُجرف بها
التراب " وهى تحفر القبر ، بأصوات الدراهم ، والصيارفة ينتقدونها . يقول (٦) :-
لها صواهل فى صم السلام كما صاح القسيات فى أيدى الصياريف

وفى البيت التالى لهذا البيت يشبه اختلاف المساحى فوق رؤوس الحفارين بأجنحة
الطير ، يقول :

١ - ص ٦٢٩

٢ - ديوان أبى زيد ص ٦٤٠

٣ - للمرجع السابق ص ٥٨٦ ، الصدى : نكر اليرم ، الجبوب : الحجارة أو التراب الذى هيل على القتيل
المرثى .

٤ - ص ٦٠١

٥ - ص ٦٢٦

٦ - ص ٦٥٠

كأتهن بأيدي القوم في كبد
ويشبه القبر بالغار المحفور عرضاً ، يقول (١) :
طيرٌ تكشف عن جُون مزاحيف
إن كان مأوى وفود الناس راح به
رَهْطٌ إلى جدث كالغار منجوف

ويشبه ما جمع على قبره من الحجارة بحمار عانة ، قد أوفى على قنة ينتظر مغيب
الشمس فيرد الماء . يقول (٢) :
إن كان عثمان أمسى فوقه أمر
كراقب العون فوق القنة الموفى

الصورة ووحدة القصيدة

نلاحظ أن معظم قصائد أبي زبيد تضم أغراضاً خاصة ، أثار في مشاعر
وأحاسيس ، عبر عنها بهذه القصائد ، فهو لم يسخر شعره للمدح والتكسب ، وكانت
معظم قصائده في المديح للوليد بن عقبة الذي كان يلزمه في حياته ، ودُفن إلى
جواره بعد مماته . كذلك نلاحظ أنه لم يشغل نفسه بالصراع السياسي ، الذي كان
قائماً آنذاك إبان مقتل عثمان بن عفان ، وإبان مقتل علي بن أبي طالب رضي الله
عنهما .

وأما عن بناء القصيدة عنده ، فهو لا يتجه للطريقة التقليدية للشعراء
الجاهليين وتابعهم فيها بعض المخضرمين . فهو لم يقف على الأطلال كغيره من
معاصريه ، ولم يقدم لأغراضه بمقنعة غزلية ، ولم يصف الناقة ولا الفرس .
فأغراضه في شعره كانت محددة منذ بداية القصيدة لارتباطها بما يلائم حاجاته ،
ويعبّر عن رغباته ولأنه فيما يبدو كان حريصاً على الوحدة الموضوعية في شعره ،
وربما أحس بأن هذه المقنعة ، تغل بوحدة القصيدة في كثير من الأحيان ، وتبعد
الشاعر عن الغرض المقصود مباشرة وقد أخذ أبو زبيد بهذه الوحدة للموضوعية في

١ - الديوان ص ٦٥١

٢ - ص ٦٥٢

القصيدة ، فى قصيدته التى قالها عندما انتزعت منه أرضه ، بعد عزل الوليد بن عقبة ، إذ بدأها بمطلع غزلى يقول فيه :

ولقد متّ غير أنى حىّ
من بنى عامرٍ شيقٌ نفسى
أشربت لون صُفرة فى بياض
كلّ عينٍ معن يراها من النا
يَوْمَ باتت بوّدها خنساءً (١)
قَسَمَةٌ مثلما يُشَقُّ الرداءُ
وهى فى ذلك لَذَنَةٌ غِيَاءُ
من إليها مُدِيمَةٌ حَوْلَاءُ

وفى قصائده فى الأسد ، يغلب عليه أن يقص قصة المواجهة بين الأسد وفريسته ، وما أصاب للفريسة من ذعر و هلع عند رؤية الأسد ، ثم صورة الصراع بين الأسد وفريسته ، وكيف تغلب الأسد فى النهاية ، وأخذ ينهش من لحم الفريسة .
ومن هذه القصائد قصيدته التى مطلعها :

فباتوا بئلاجون ، وبات يَمَرى
بصيرَ بالنجى هادٍ هموسُ (٢)

فى هذه القصيدة ، يروى أبو زبيد قصة جماعة يسرون بالليل ، وفاجأهم الأسد فتصدى له سيد القوم ، فافترسه الأسد ، وفزعت الجماعة وغادرت المكان ، وتركت الرئيس فريسةً للأسد ، الذى أخذ يختال ويتعجب فى مشيته ، سعيداً بصنيعه ،
يقول:

فباتوا بئلاجون وبات يَمَرى
بئسى القرّيتين له عيال
عُنين بكل منعفر سلب
راى بالمستوى سَفراً وعيراً
تواصوا بالسرى هجراً وقالوا
فبايكم وهذا العرق واسموا
وحقوا بالرحال على المطايا
إلى أن عرسوا وأغبّ عنهم
بصيرَ بالنجى هادٍ هموسُ
بَنُوهُ وَمَلِيعٌ نَصَفُ ضَرُوسُ
يجاء به وقد نسل الدريس
أَصْرَلًا وَجَنَّتْهُ الْقَمِيْسُ
إذا ما ابتز أمركم النعوسُ
لموماةٍ مأخذها مليسُ
وضموا كل ذى قرن وكيسوا
قريباً ما يُحَسُّ له حيسُ

١ - ديوان أبى زبيد ص ٥٧٧

٢ - المرجع السابق ص ٦٣٠ : ٦٣٤

خَلَا أَنْ الْعِثَاقَ مِنْ مَطَايَا
فَلَمَّا أَنْ رَأَاهُمْ قَد تَدَانَسُوا
فَنَارَ الزَّاجِرُونَ فِرَادَ مِنْهُمْ
بَنَضَ السَّيْفِ لَيْسَ لَهُ مَجْنٌ
فِيضْرِبُ الشَّمَالَ إِلَى حِشَاةِ
بَسْمَرٍ كَالْمَحَالِقِ فَمَسَى فُتُوخِ
فَخَرَّ السَّيْفِ وَاخْتَلَفَتْ يَدَاهُ
وَطَارَ الْقَوْمُ شَتَى وَالْمَطَايَا
مُعَاوِدُ جُرْأَةِ وَقْتُ الْهُوَادَى
إِذَا ضَمَّتْ يَدَاهُ إِلَيْهِ قِرْنَآ
وَجَالَ كَأَنَّهُ فَرَسٌ صَنِيعٌ
كَأَنَّ بَنَحْرَهُ وَبِمَنْكَبِيهِ
يَشُقُّ الزَّارَ يَحْمِلُ عِبْقِرِيآ
فَئِذْكَ أَنْ تَلْقَاهُ تَفْلُدُوا

حَسَنَ بِهِ فَهَنَّ إِلَيْهِ شَوْسُ
أَتَاهُمْ وَسَطَ رَحْلِهِمْ يَمِيسُ
تَقَرَّبُوا وَوَجَّهَتْ ضَبِيصُ
فَصَدَّ وَلَمْ يَصَادِفْهُ جَسِيمُ
وَقَد نَادَى وَأَخْلَفَهُ الْأَدِيمُ
بِقِيهَا قَضَّةَ الْأَرْضِ الدَّخِيمُ
وَكَانَ بِنَفْسِهِ وَقَيْتَ نَفُوسُ
وَغَوَّدَ فِي مَكْرِهِمُ الرَّسِيمُ
أَشْمَمَ كَأَنَّهُ رَجُلٌ عَبُوسُ
فَقَدَّ أَوْدَى إِذَا بَلَغَ النَّسِيمُ
يَجْرُ جَلَالَهُ نَيْلَ شَمُوسُ
عَجِيرًا بِأَتِ تَعْبُؤُهُ عَرُوسُ
قَرَى قَد مَسَّهُ مِنْهُ مَسِيمُ
وَيَحْدُثُ عَنْكُمْ أَمْرَ شَكِيمُ

وفي قصيدة أخرى يروي أيضاً قصة جماعة مرتحلين بالليل وعرسوا في وقت
السحر، وكان الأسد يربقهم ، وفاجأهم فتفرقت المطايا ولانت بالفرار وحاولوا دفع
الأسد بسيوفهم وفرشهم ، وحاولوا أن يزجروه لئيتعد عنهم ، فافترس أول فارس
تقدم نحوه بسيفه ثم تلاه يمين بعده . يقول (١) :

فَلَمَّا رَأَوْا أَنْ لَيْسَ شَيْءٌ يَرِيْبُهُمْ
وَقَدْ بَرَدَ اللَّيْلُ الطَّوِيلُ عَلَيْهِمْ
تَنَادَوْا بِأَنْ حَلُّوا قَلِيلاً وَعَرَّسُوا
بِعَيْنِيهِ لَمَّا عَرَّسُوا وَرَحَالَهُمْ
فَفَاجَأَهُمْ يَسْتَنُّ ثَانِي عَطْفِهِ
فَنَادَوْا جَمِيعاً بِالسَّلَاحِ مُسْتَرَأً
وَنَدَّتْ مَطَايَاهُمْ فَمَنْ بَيْنَ عَاتِقِ

وَقَدْ تَلَوَّجُوا لِلنَّوِيلِ لِلتَّمَامِ وَأَبْكُرُوا
وَمَرَّ بِهِمْ لَفْحٌ مِنَ الْقَرِّ أَعْسَرُ
وَحَفُّوا الرِّكَابَ حَوْلَكُمْ وَتَبَسَّرُوا
وَمَعَسَقْتُهُمْ وَالصَّبْحُ قَدْ كَادَ يَسْفُرُ
لَهُ غَيْبٌ كَأَنَّمَا بِأَتِ يَمَكُرُ
وَأَصْبَحَ فِي حَافَاتِهِمْ يَتَمَّرُ
وَمَنْ بَيْنَ مَوْدٍ بِالنَّبْسِيْطَةِ يَعْجُرُ

وطاروا بأسيافٍ لهم وقطائف
فأولُ من لاقى يجول بسيفه
فَقَضَّصَ بالنايين قلة رأسه
ووافى به من كان يرجو إيباهُ

وكلُّهم يخفى الوعيدَ ويترجُرُ
عظيم الحوايا قد شتا وهو أعجُرُ
وَدَقَّ صَلِيفَ العُنُقِ والعُنُقُ أصعُرُ
فصادفَ منه بعض ما كان يحنُرُ

ويشير في البيت قبل الأخير من النص السابق إلى طريقة افتراس الأسد لغريسته ، إذ تناول الرأس بناييه محاولاً تحطيمه ، ثم دق جانب عنقه فأماله . وكذلك قصيدته التي قالها في كلبه "أكدر" حين لقيه الأسد فقتله . فهو يروى قصة مغادها أن كلبه أكدر خرج يتبخر ويختال كعادته ، حتى وصل إلى قرب البئر وهناك كان عرين الأسد . ونظر أكدر فوجد الأسد قريباً منه ، ثم رأى لبؤته وأشباله ، فظن أن قد وقع على صيد ثمين ، وما كاد يقترب منهم حتى انتابه الهلع ، وأفاق من حلمه الزائف وحاول الهروب .

ولكن الأسد تمكن منه وتناوله بأنيابه ، ولقى الكلب حتفه هناك . يقول (١) :

حتى إذا كان بين الحوض والعطن
أسرث وأكدر تحت الليل في قرن
حتى تناهى إلى الأهوال في سنن
فوق السراة كنفري القارج الغضن
كالبغل حطبه العجلان في سكن
إلى عرين كعش الأرملة اليفن
وظن أكدر غير الأمن والحتن
لحسه أم أجري ستة شرن
لهن يبهرن تعبيراً على سدن
أن قد تجلل أهل البيت باليمن
فحاص أكدر مشفقاً من الوسن
غضب عليهم ضافى اللحم واللبن
وكان بالليل ولجأ إلى الجنن

فجال أكدر مختالاً كعادته
لاقى لدى ثلث الأطواء داهية
حطت به سنة ورهاء تطرده
إلى مقارب خطو الساعدين له
ريبال ظلماء لا تحم ولا ضرع
فأسريا وهما سنا همومهما
هذا بما علقت أظفاره بهم
حتى إذا ورد الغزوال وانتبهت
باد جناحها حصاء قد أفلت
وظن أكدر أن تموا ثمانية
فخاف غرتهم لماننا لهم
بأربع كلها في الخلق داهية
أنقاه متخذ الأنياب جنته

١ - اللبيوان ص ٦٦٦ : ٦٦٨

* المصادر *

- الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني ، أشرف على لجنة الطبع د . إحسان عباس - بيروت ١٩٨٧ م
- الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - القاهرة ١٩٧٧ م .
- الأمالي لأبى على القالى البغدادي ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ م .
- تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٦٧ م .
- جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرش ، دار المسيرة بيروت ١٩٨٣ م .
- الحيوان للجاحظ بتحقيق وشرح عبد السلام هارون - مطبعة الحلبي ١٣٥٧ هـ .
- خزانة الأئمة ولب لباب لسان العرب تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون - دار الكتاب العربي ١٩٦٨ م .
- ديوان أبى زبيد الطائي جمعه نوري حمودي القيسي - العراق ١٩٦٧ م .
- ديوان البحترى تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي - دار المعارف ١٩٧٧ م .
- ديوان عروة بن الورد تحقيق كرم البستاني - مكتبة صادر بيروت ١٩٥٣ .
- ديوان المتنبي تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ، نشر دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٧٨ م .
- شعراء النصرانية بعد الإسلام ، للأب لويس شيخو - المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين بيروت ١٩٢٤ م .
- الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - القاهرة ١٩٧٧ م .
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ، قراءة وشرحه محمود محمد شاكر ١٩٧٤ م .
- الكامل في اللغة والأب لأبى العباسي محمد بن يزيد المبرد - القاهرة ١٣٥٥ هـ .

- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ، قنمه وحققه وعلق عليه د . أحمد الحوفى و د. بدوى طبانة - القاهرة ١٩٦٠ م .
- المحبر للعلامة الإخبارى النسابة أبى جعفر محمد بن حبيب ، رواية أبى سعيد السكرى - المكتب التجارى بيروت .
- المزهر للسيوطى شرحه محمد جاد المولى ، على محمد البجاوى ومحمد أبى الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - بيروت ١٩٨٦ م .
- معجم الأبناء لياقوت الحموى - دار إحياء التراث العربى بيروت .
- المعمرون والوصايا ، لأبى حاتم المسجستانى - تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦١ م .